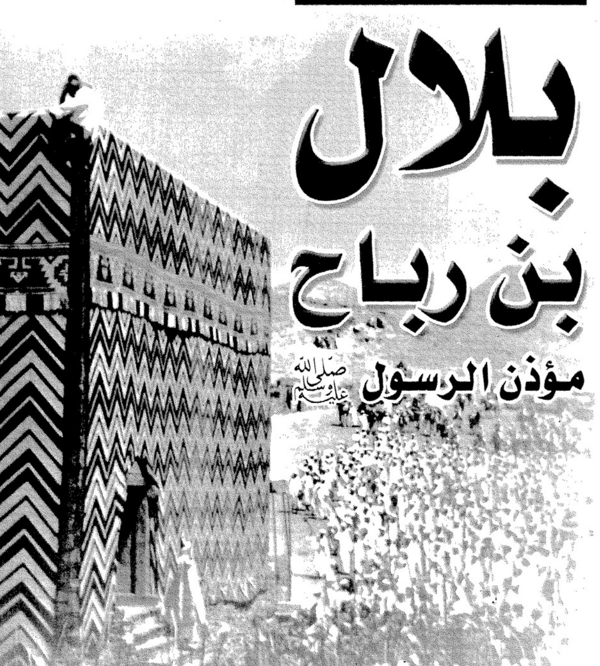
ه . أ . ل كريدج

بلال بن رباح

مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم



ترجمة: د. ماهر يسرى

مكتبة النافذة

بلال بن رباح

مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم

تأليف

هـ .أ. ل. كريج

ترجمة

د. ماهر يسرى

مكتبة النافذة

بلال بن رباح

تأليف

هـ .أ. ل. كريج

ترجمة

ماهر يسرى

الطبعة الأولى / ٢٠٠٥

رقم الإيداع ١٤٠٤٩ / ٢٠٠٥



الناشر: مكتبة النافذة

المدير المسئول: سعيد عثمان

الجيزة ٢شارع الشهيد أحمد حمدى - الثلاثينى - فيصل

تليفون وفاكس: ٧٢٤١٨٠٣

Email : alnafezah@hotmail.com

بلال

أساسًا لا يذكر اسمه، ولا يتذكره الناس إلا مقرونًا بالحب. فالناس جميعًا أحبوا بلال المسلمون والمسيحيون. وعلى الرغم من هذا الحب فإنه لم يكتب عن بلال بن رباح سوى القليل، ولم يعرف عنه الناس سوى أنه رجل أحبه كل الناس، إنه المؤذن الأول والأثير للرسول محمد ﷺ.

والآن في القرن الثاني عشر الهجري[1] وبعد تحرير العبيد، ومساواة الزنوج بالبيض، وفي العالم الثالث يبرز اسم بلال بن رباح رمزًا للقوة. أو هكذا ما عرضه الفيلم الأمريكي الشهير محمد رسول الله .MOHAMMED MESSENGER OF GOD أصبح اسمه معلومًا لدى الملايين الذين شاهدوا ذلك الفيلم، والذي أخرجه المخرج العراقي العالمي مصطفى العقاد.

هـ. أ. ل. كريج.

هو الكاتب الذي وضع سيناريو هذا الفيلم محمد رسول الله ﷺ، والذي يؤمن ويتعاطف مع رسالة محمد ﷺ، ويؤمن ويتعاطف على الإسلام، وهو شاعر أيضًا، كتب العديد ونظم الكثير من الأشعار لمحطة الإذاعة البريطانية BBC. وهو مؤلف سيناريو خمسة أفلام عالمية أخرى، مثل الفيلم العالمي Waterlloo (معركة واترلو) وعمل لبعض الوقت كناقد لمجلة نيو ستانيس مان New .Statesman

* التشجيع الذي حثني لتأليف كتابًا عن بلال بن رباح مؤذن الرسولﷺ، كان الفضل فيه للسيد مصطفى العقاد. المنتج والمخرج لفيلم محمد رسول الله ﷺ، فعندما كنا نعمل سويًا في كتابة الفيلم، لا حظنا أنه كلما اندمجنا أكثر في الحديث عن بلال كلما ازداد حبنا وإعجابنا به.

([1]) عنه على أعتاب القرن الخامس عشر الهجري ١٤٢٤هـ.

وأشكر أيضًا مايكل ستاركي؛ لمعلوماته الغزيرة ومعرفته للمصادر المتعددة، ولمساعداته في البحث.

* * *

* *

*

نقاط عن بلال(٢)

لا يذكر بلال إلا مقترنًا بحب الناس له، فهو يسكن القلوب، ولكن وفي نفس الوقت رغم الحب الكبير لبلال والموجود في القلوب حتى الآن، فإن قليلين هم الذين يرغبون في المزيد من الكتابة عنه وعن حياته، فهم يرون أنه كافيًا جدًا أن يقولوا عنه أنه كان هناك ودائمًا بجوار الرسول ﷺ، وأنه كان أثيرًا وحبيبًا لديه.

([2]) بلال بن رباح مولى أبي بكر الصديق، ويكنى أبا عبد الله، وكان من مولدي السراة، واسم أمه جمامة، وكانت أمة لبعض بني جمح.

أخبرنا إسماعيل بن إبراهيم الأسدي عن يونس عن الحسن قال: قال رسول الله: "**بلال سابق الحبشة**".

عن جابر بن عبد الله أن عمر كان يقول: أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا - يعني بلالاً -.

أخبرنا محمد بن عبيد الطنافسي، والفضل بن دكين قالا: حدثنا المسعودي عن القاسم بن عبد الرحمن قال: أول من أذن بلال.

وشهد بلال بدرًا وأحدًا والمشاهد كلها مع رسول الله، فلما قبض رسول الله جاء إلى أبي بكر فاستأذنه في الخروج إلى الشام ليرابط في سبيل الله، فقال أبو بكر: أنشدك الله يا بلال وحرمتي وحقي قد كبرت سني وضعفت واقترب أجلي. فأقام بلال مع أبي بكر حتى توفي أبو بكر، ثم جاء إلى عمر فقال مثل ما قال لأبي بكر، فأذن له فخرج إلى الشام فلم يزل بها حتى توفي.

حدثنا محمد بن عبيد الطنافسي قال: حدثنا إسماعيل بن أبي خالد عن قيس قال: قال بلال لأبي بكر حين توفي رسول الله: إن كنت إنما اشتريتني لنفسك فأمسكني، وإن كنت إنما اشتريتني لله فذرني وعمل الله.

أخبرنا محمد بن عمر قال: أخبرنا موسى بن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي عن أبيه قال: توفي بلال بدمشق سنة عشرين، ودفن عند باب الصغير في مقبرة دمشق وهو ابن بضع وستين سنة، وذلك في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ. الطبقات الكبرى لابن سعد: ٣٨٥/٧.

وفي الصور[٣] القليلة التي صورت هذه المرحلة كان من السهل اليسير التعرف على بلال، فهو أسود[٤]. والحقائق القليلة التي نعرفها عن بلال يمكن قولها في عجالة وبسرعة.

* فقد ولد بلال بن رباح في مكة.
* ابن عبد حبشي يسمى "رباح".
* في بلدة (مكة) كانت تعبد الأصنام.
* وقد عذب أقسى تعذيب بعد إعلان إسلامه وإيمانه بإله واحد.
* وقد تم عرضه في سوق العبيد كي يباع.
* وقد اشتراه الرفيق الأثير لدى الرسول ﷺ أبو بكر الصديق[٥].
* وقد عينه الرسول كأول مؤذن في الإسلام.
* وقد أُوكِلت إليه مسئولية إمداد الجيوش الإسلامية بالمواد الغذائية.
* ولقد كان قريبًا جدًا من الرسول ﷺ، وكان مسئولاً عن إيقاظه في الصباح[٦].

([3]) يقال أن بعض الفنانين الصينيين الذين تميزوا وبرعوا في الرسم منذ قديم الزمن، قاموا برسم عدة لوحات للرسول، الصحابة. [ولكنني أشك كثيرًا بل على يقين من أن هذا لم يحدث، اللهم بعض الصور الخيالية والتي قصد منها الإساءة للرسول، والصحابة، والإسلام].

([4]) معروف أن سكان نجد جميعهم أو أغلبهم سود، وهذا ما خفي على المؤلف.

([5]) أبو بكر الصديق: أبو بكر عبد الله بن أبي قحافة، واسمه عثمان بن عامر من ولد تيم ابن مرة، يلتقي هو ورسول الله عند مرة بن كعب، وسمي صِديقًا لتصديقه خبر المسرى، وأمه سلمى وتكنى أم الخير بنت صخر وهي بنت عم أبيه.

([6]) الرسول ﷺ كان يقوم الليل للصلاة، ويستيقظ في الفجر للصلاة، وبالطبع كان بلال يؤذن لصلاة الفجر، وهذا ما عناه المؤلف مِن أنه يوقظه.

* بعد وفاة الرسول ﷺ حزن بلال عليه حزنًا كبيرًا، حتى أنه أصبح بعد ذلك لا تستطيع قدماه أن تحمله، وبالتالي لم يعد قادرًا على تسلق الدرجات للأذان.

* وقد مات بلال في سوريا سنة ٦٤٤م بعد ١٢ سنة من وفاة الرسول ﷺ.

- ولا يوجد الكثير في حياة بلال كي نقصه، على الرغم من أن أي حدث وقع في حياة محمد ﷺ يعتبر حدثًا وقع في حياة بلال ﷺ، حيث أنه لم يفارق الرسول أبدًا.

- ويعتبر العمودان اللذان تتركز عليها ذكرى بلال هما:

* الحب الذي غمر كل من تقابل معه أو عرفه.

* والقرب من الرسول ﷺ.

وهذا يكفي لأي كاتب أن يكتب عنه، وهو فعلاً ما جعلني أكتب عنه للسبب الأول، فقد أحببته فعلاً.

وللسبب الثاني. فقد تمنيته بشدة. (أن يكون بجوار الرسول ﷺ).

إن معظم المسلمون السود في أمريكا يتسمون باسم بلال.

ويعتبر بلال النموذج المسلم للقديس المسيحي، كما يراه المسيحيون، أو كما يصفهم كتابهم وتعاليمهم الدينية.

ولقد قال الرسول ﷺ: **"بلال رجل من رجال الجنة"**.

* * *

* *

*

بلال يتحدث عن العبودية

أنا – بلال بن رباح ابن اثنين من العبيد، لقد ولدت في العبودية، ونشأت تحت وطأتها إلى اليوم الذي قرر فيه – سيدي- أمية[7] أن يحكم علي بالموت.

إن العبد لا توجد في حياته الكثير من الحوادث والأحداث، التي يمكن الحديث عنها، فهو ليس كالرجل الحر في أي شيء، حتى ولا حقه في الحياة.

العبد يسقط بسقوط سيده، فيباع بأبخس الأثمان وتتشتت أسرته، ويتفرق عن أهله وأبناؤه وآباؤه وزوجته، لينقل إلى سيد آخر، لا يختلف عن سيده الأول إلا في قسوته ووحشيته، فالعبد في نظر سيده جلد يجلد بالسياط.

أنا – الآن رجل عجوز أعيش في دمشق، وأنا في خطر من أشواك الورود الملقاة على أعقاب باب منزلي، أكثر مما كنت عليه من خطر من يدا سيدي أمية أو سفاهاته، وتصرفاته التي تصدع الرؤوس، مثلما تتصدع رأسه بما يتجرعه من كؤوس.

بالنسبة للعبد: هو لا يعرف شيئًا، ولكن يتوقع كل شيء لا يوجد صوتًا مثل صوت سيدك، إنه مميز، إن أذنك كعبد تعرفه تمامًا، وسط ملايين الأصوات وتميزه وتخشاه، وتتسمعه كل لحظة، لا يمكنك أبدًا أن تختفي من صوته، فهو في أذنك يذهب معك لكل مكان وإلى أن تجيبه. ويفضل أن تجيبه قبل أن يختفي صدى صوته عندما يناديك.

إذا لم تكن أمام عينيه وفي المكان الذي يعتقد إنك به، أو المكان الذي يصل صوته إليك. فهذا يعني إنك قد فررت هربت، وهذا يعني الكثير، ويأتي وراءه

---

(7) هو أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح، أحد أسياد قريش.

بالكثير... لقد اشتراك بنقوده (دراهمه)، اشترى حياتك. وطالما في صدرك نفس يتردد.

ليس من عاداتي أن أتهكم على الموتى، ولكنني أستطيع أن أخبرك أنه عندما اشتراني أمية من سوق العبيد في مكة، فإنه حصل بالفعل على أكثر مما دفعه بكثير جدًا، إنك تعلم مثلاً أنه عندما يشتري رجلاً حصانًا، فإنه لابد وأن يتأكد من أنه لن يلقى به من فوق ظهره فيكسر رقبته، ولكن هذا يحدث، وعندما يحدث هذا يقول الناس لقد كانت صفقة خاسرة.

ولكن الله وحده هو الذي يقرر من الذي سيضحك أخيرًا[٨]، لقد انحرفت عن الموضوع لابد أنني كبرت كثيرًا في السن حتى انحرف عن الموضوع قبل البدء فيه.

إنني لا أستطيع أن أنسى أمية، فلقد كان فقط سائق وموجه العبيد، إنه يحتل منطقة ومساحة كبيرة جدًا من عقلي ووجداني وتفكيري؛ لأنني أنا بلال بن رباح وعبد أمية، سوف أحدثكم عن يوم يعتبر أعجوبة وغريبة من الغرائب، كان عمري اثنين وعشرون عامًا عندما قام محمد رسول الله ﷺ بإشاعة النور على العالم والبشرية جمعاء. لقد سمعت ما قاله وشاهدت ما فعله.

* * *

* *

*

---

(8) هناك مثل عربي يقول: يضحك كثيرًا من يضحك أخيرًا.

بلال يخبرنا عن الرجل الذي آثار المتاعب في مكة

في هذا الصباح وكما هو معتاد كل يوم، توجه أمية للجلوس مــع التجــار الآخرين بجانب الكعبة.

إنني معتاد أن أترقب وأنتظر الصباح كل يوم، كنت جالسًا القرفصاء مــع زملائي العبيد، نتهامس فيما بيننا ونتبادل القيل والقال، وأعيننا تراقب وتلاحــظ وتتابع أسيادنا، نترقب منهم أية إشارة، ونسمع أي صوت أو أمر، ولكن أهم من هذا كله أننا كنا نجلس مستمتعين بالظل.

والظل في مكة مثل الهواء للرئتين[٩] هام جدًا، فحرارتها لا تطــاق، فــلا شيء ينمو في مكة لا أشجار، ولا حشــائش، ولا أزهــار، والــتلال والجبــال الصخرية التي تحيط بالمدينة تحتفظ بحرارة النهار إلى الليل. وبالمفاهيم المناخية تعتبر مكة أشد مناطق العالم حرارة، ومع هذا فكل من يعرف مكة، كل من عاش في مكة، كل من زار مكة لا يمكن أبدًا أن ينساها، أو يتركها، أو يبتعد عنها إلا لسبب قهري يغلب على أمره.

وحتى اليوم سنة ٢٠٠٣ كل من زار مكة لابد وأن يقوم بزيارتها ثانيــة، ويبكي وتزرف عيناه الدمع كلما جاء وقت الحج والعمرة، إنها أطهر وأنقى بقعة على ظهر الأرض والسماء وخلقها الله.

([9]) لك أن تتخيل ذلك حرارة كالجحيم، ومع ذلك كان الرسول ﷺ يسير ويعمل ويصوم ويحج ويحارب ويأكل، ونحن اليوم نستخدم الطائرات وأجهزة التكييف، والطعام المختلف، والسيارات ونقول: إن هذا عمل صعب. حتى الطواف أصبحت الأرض حول الكعبة مكيفة.... إنه لرسول كريم.

لا هواء رطب عليل، ولا واحات مليئة بالمزروعات[10] والنخيل يمكن أن تغري أو تبقى كائنًا من كان شاهد مكة ولم يغلبه الحنين والشوق في العودة إليها.

حتى الجمال ترفع رأسها لأعلى، وتمد بأنوفها، وتدير رؤوسها باتجاه مكة لمجرد ذكرك لاسمها، وهي في صميم الصحراء بعيد عنها.

إنه الشوق والحنين الروحي، الذي يقود الطيور، والأسماك آلاف الأميال للعودة للأوطان وللمكان الذي لا يسكن فؤادها إلا بالعودة إليه ثانية.

حتى أنا - بلال بن رباح - العبد الأسود ابن العبد الأسود الذي عذب أقسى عذاب في مكة، والذي طرح على ظهره، وبطنه، فوق لهيب الرمال في صحراء مكة. والذي أمر أن يستمر في الجري في دائرة حول عمود؛ كي يسقط مغشيًّا عليه في مكة، مازال يشعر بالحنين والحب والرغبة في العودة إلى مكان تعذيبه في مكة.

أستطيع أن أقول لك: إن تلك المياه المثلجة الموجودة في ذلك الكأس الفضي مياه دمشق، لا تقارن أبدًا بتلك المياه المليئة بالفسفور والساخنة مياه زمزم، التي لا يُظمأ من شربها، والتي يبرأ كل مريض اغتسل بها. [زمزم لشاربها نقيه، وتشفيه، وترويه، فهي مياه زمزم في مكة] التي ارتشفها من كأس لا يستطيع بشر أن يصنعه، لماذا تلك الشمس المحرقة، التي تجعل من الوادي لهيبًا، الوادي الخالي من أي شجرة من كل طير أو حتى فراشه؟ لماذا تلك الطبيعة القاسية التي لا ترحم ولا تشفق على كائن من كان؟ لماذا هي تملأ وجداننا، وتطوف بخيالنا، وتهوي إليها نفوسنا؟

لا تحاول أن تفكر كثيرًا ولا أن تنظر بعيدًا.

---

[10] الآن ٢٠٠٣ يقوم البنجلادشيون في مكة زراعة الأشجار والنباتات كل يوم، فتحرقها الحرارة رغم استخدام أحدث الوسائل العالمية العلمية، فيعيدون الزراعة ثانية وهكذا. أيضًا لا توجد في سماء السعودية أية طيور طائرة إلا نادرًا جدًا يصعب مشاهدتها.

الكعبة ذلك الجسم ذو اللون الأسود، ذلك الحجم المثير الساحر، ليس بالصغير فيهمل، ولا بالكبير فيخشى، إنها جوهرة الأرض ومركزها، إن ظلها على الأرض يفوق ظل مليون شجرة باسقة، إنها الواحة التي لا تنتهي، ولا يجف ماؤها (بئر زمزم)، حتى في عهد الوثنية، والجاهلية والعصبية.

كانت الكعبة ملجأ وملاذ الجميع، تنتهي في رحابها العصبية والحروب والقتال، هي الملاذ الآمن الذي يأمنه ويأتمن فيه الجميع على مالهم وعرضهم وحياتهم.

لا يمكن لرجل أن يرفع سيفه على خصمه على قاتل عشيرته، ولكن يرفع يده ويمدها بالطعام والشراب إليه، طالما هو في الحرم قبل أن يتعصب متعصب لقبيلته، أو أبناء عشيرته، وقبل أن يطالب بثأره، فهو مطلوب منه هنا نسيان كل شيء؛ لأنه في الحرم، أما خارجه فلكل حدث حديث.

الكعبة أول بيت تعبد فيه العبد لربه، أول بيت بناه إبراهيم أبو الأنبياء، إبراهيم والد إسماعيل وإسحاق، إبراهيم أول الموحدين وأول المسلمين.

ولكن كيف تصير الكعبة ساحة لصراع العديد من آلهة الوثنين، لكل إلهه الذي يصنعه على هواه، والذي لا يرضى بسواه.

إنهم آلهة بعضها بيد مبتورة، أو رجل مكسورة، آلهة تستخدم لسؤالها عن الرحلات والتجارة والسفريات. لقد كانت هناك ٣٦٠ إلهًا، كلها مصنوعة من أجل النفع والاستثمار وتحقيق الربح.

كل عام وفي وقت محدد من السنة يأتي العرب من شتى بلدانهم ونواحيهم لزيارة الآلهة في الكعبة، وكانت تقام هناك وبجوار وحول الكعبة سوق تجارية كبيرة[١١]، حيث كان يقصدها التجار من اليمن، وسوريا، والعراق، وكافة أنحاء

---

(١١) وقد ظلت هذه الأسواق حول الكعبة وبجوارها إلى عهد قريب، ويبدو أن الاقتصاد والمال لهما اليد الطولى دائمًا في حياة الأمم والشعوب.

العالم العربي[١٢]. وبالطبع العبيد من كافة أرجاء العالم، فهي تجارة رابحة على الدوام. أيضًا تجارة الذهب، والاتجار في الآلهة كانت تحظى بعناية خاصة من التجار[١٣].

إنني أقص كل هذه الحكايات كي أصور لكم حقيقة الأمور التي عشتها، والتي كنت أستعيدها في فكري كلما أتيحت لي الفرص أن أجلس مع إخواني العبيد لبعض الوقت في الظل.

هناك ذهب الرجل ليتكلم مع الآلهة، أنه صوت أبو جهل الذي كان عبده يجلس القرفصاء بجواري؛ كي يهب قافزًا على قدميه لتلبية إشارة سيده، وبمجرد أن تتلاشى ضحكته، ولكن سيده لم يشير إليه؛ لذلك جلس القرفصاء ثانية فرحًا لراحة قصيرة.

لماذا لا تشير على الماء. جاء هذا السؤال على لسان سيدي أمية، والذي يعرب إجابته الآن وهو في الجحيم، رأيته بعد ذلك يذهب متجاوزًا محمد الذي كان يشخص ببصره ناحية الجبل، ويهمس بكلمات ردًا على الملاك الذي كان يخاطبه، ثم اتجه إلى أحد جوانب الكعبة بفعل عاصفة شديدة تدفعه من ظهره دفعًا جعل سادة قريش يسخرون ويضحكون منه على ذلك. [لجهلهم وغبائهم وعدم معرفتهم بما يحدث]... هؤلاء هم سادتنا!!!

ولكن أبو سفيان لم يكن يضحك[١٤]، أنه الرجل الذي يراقب ويتحكم في كل سادتنا... أصحابنا نحن العبيد. إن قصة أبو سفيان وقصتنا عنه مرتبطة تمامًا،

([12]) دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام.

([13]) الدين والاتجار بالدين كان ومازال وسيظل تجارة رابحة يتجر بها وفيها من لا دين ولا خلق ولا أخلاق لهم.

([14]) أبو سفيان يمثل الكفر، والحقد، والكراهية، والرسول ﷺ يمثل الرحمة، الحب، التسامح، والصراع بين الاثنين يؤكد كفر وحقد طرف، وتسامح وحب وإيمان الطرف الأخر، الشيء الذي أصبح ظاهرًا وواضحًا للجميع، مسلمين وكفره.

كل منها تحتاج الأخرى وتكلمها، بل لربما كانت تصرفاته هي التي ساعدت على جعلنا على ما نحن عليه الآن.

وقف فجأة أبو سفيان وصاح قائلاً: الرجل ذو الإله الواحد. أصبح الآن بلا إله.

فعلى عادته وضع إصبعه فوق منطقة النبض تمامًا. فالكفرة الجاهليون يؤمنون بتعدد الآلهة، وأن لكل شيء إله خاص به، ولا يمكنهم أبدًا تخيل كيف يؤمن ويخلص شخص بإله واحد.

ولكن أبو سفيان يعرف تمامًا عن أي شيء يتحدث، فهو يستطرد في توتر وبقلق شديد قائلاً: إن الآلهة سوف تتركنا، وسوف تعطي أموالها ونذورها وهداياها لمدن أخرى. [هو يعلم تماما أن تلك الآلهة التي صنعوها بأيديهم لا حول لها ولا قوه، ولا يمكنها أن تتحرك من مكانها؛ لأنها مجرد حجارة شكلوها هم بالشكل الذي يريدونه، ولكن..... هذه الآلهة هي التي يأتي التجار والناس من أجلها، وهي التي يقدم لها النذور والهدايا والمنح، وهو لا يريد أنه تخسر مكة هذا كله، فيخسر بالتالي هو أيضًا]. وسوف نفقد كل شيء ما لم نتصدى لهذه الدعوة. ثم نظر إلى أبي لهب وصاح قائلاً: إنك عمه، وعليك تقع مسئولية تقويمه وإعادته إلى دين آباءنا. وارتبك أبو لهب فهو عاده يجلس بعيدًا عن تجمعات النقاش، آملاً أن يتركه الجميع وشأنه... يجب على أن أقومه؟ إنه مسئوليتي؟ عليَّ أن أعيده إلى دين آباءنا؟

إن محمد في الأربعين من عمره الآن، وأعرف أنه جلب العار علينا، عليَّ وعلى أسرته، بل وعلى وضعه ومركزه الاجتماعي، إنه ينادي بأن يتساوى معنا العبيد، إنه قد جن، لقد اعتبر بالأمس أحد العبيد كابن له، إنه يعامله هكذا بالفعل، إنه يعطي كل شيء لأي فرد محتاج يطلب منه ذلك، إنه ينكر الطعام على نفسه ويقدمه للغير، إنك تجد كل يوم على باب منزله العديد من السائلين والمحتاجين

لا يرد أحدًا منهم أبدًا، إن بعضهم يعتبر نفسه غير محظوظ؛ لأن محمدًا لا يمتلك الآن غنمًا وماشية وإلا لسألوه إياها ولأعطاهم هو ما سألوه، إنه لا يـرد سـائل أبدًا.

أخذ أبو لهب يتفرس في وجوه القوم وكأنه يحاول معرفة من منهم سـوف يساعده في هذه المحنة، فهو لا يستطيع شرح ما يحدث أمامه إنه لا شرح له... نبي في بلدته، وفي حمية قلقه أمسك بزراع أبو سفيان.

أخبرني يا أبا سفيان: رجل في مقتبل عمره قوى جميل الشكل، لا توجـد شعره رمادية في رأسه، متزوج من زوجة غنية، رجل يمكنه الحصـول علـى أفضل ما في مكة... ماذا يفعل؟ يجلس مرتعشًا من قسوة البرد وحيدًا في كهـف في الجبال... أليس هذا جنونًا؟ إن له فراشًا دافئًا مجهزًا في منـزله، كل ذلك من أجل ملاك نقول: إنه يأتي إليه ويتحدث معه، هذا الملاك ليس سوى أجراسًا تدق في أذنيه هو فقط.

وجلس أبو لهب منهمكًا متهالكًا بينما أصحابه في حاله من الضيق والتبرم والقلق، مجنون في العائلة؟ هو أهم ما يخشاه أي فرد؛ لأنه لا يمكـن عمـل أي شيء له، ولا يمكن لأي نصيحة أن تنفعه، كل الذي يمكن عمله هـو الجلـوس وانتظار معجزة تعيد له صوابه وترد عليه عقله.

ولكن منذ عام مضى كنت تعرف تمامًا أنه أعقل وأكمـل وأكثـر الخلـق أمانة، كنت تحترمه وتنفذ آراؤه، لم تكن تستطيع أن تضحك منه، لقد كـان هـو الذي يحكم فيما بينكم ويحل لكم مشاكلكم، كنتم وأنت أولهم تذهبون إليـه عنـد الحاجة؛ لأنه رجل عاقل كامل أمين.

نظر أبو لهب لعبده وقال: إن كل ما يقوله حق وسبق قوله، ولكن الله يعلم ما تخبئه الأنفس والروح. إن ما يقوله عن الآلهة فهي جديرة بحماية نفسها، أمـا

مساواته بين الناس فهذا ما لا يحتمل، وسوف تذهب للعبيد الذين سمعوه لتعـــرف رأيهم.

* * *

* *

*

بلال يعصى سيده

كنت واقفًا هناك بجوار الحائط، وحيث عاده ما يقف العبيد. عندما قـاموا باستدعاء عمار.

دفعوه بقوة وفي قسوة حتى سقط على ركبتيه، ولكنه رفع عينيــه إلــيهم، فشاهدت إن الموقف لن ينتهي على خير أبدًا، إنه عبد ويعرف تمامًا أنه لا يجب أبدًا أن يرفع رأسه وينظر في وجه أسياده. العبد لابد وأن تنحني رأسـه دائمًـا، ولكنه تمسك بحقه في كونه أصبح حرًا، نعم رجل حرًا مثلما خلقه الله، حتى ولو كان في أسفل سلم التدرج الإنساني، وحتى لو أنهم أفهموه أن عليه أن يخفـض رأسه للأرض دائمًا.

سألوه: ما الذي علمه لك محمد؟

لقد علمنا محمد ﷺ أن جميع الناس سواسية متساوين في كل شيء كأسنان المشط.

أنا (بلال) أعلم ذلك تمامًا، أنا وبقية العبيد الذين معي والملتصقين بالجدار، أخذت أجسادنا ترتعش من البرد – خوفًا – عندما سمعت ما قالــه – عمــار –، وأعلم بل شاهدت بعيني كيف احمرت عينا أمية واحمر وجهه وتصبب عرقًا... فصاح قائلاً: ولكن العبد ليس كسيده أبدًا، أنه ليس مثله في أي شيء.

تعجبت جدًا، لماذا أجابه عمار بهذه الكلمات؟ لماذا لم تقل لــه مــثلاً: إن محمدًا قد علمنا الصلاة؟ حتى يتجنب الأذى ويكون قوله صادقًا في نفس الوقت. أو يقول: علمنا أن نحب جيراننا، وأن نتمنى للغير ما نتمناه لأنفســنا. لــو أنــه أخبرهم ذلك لتركوه. ولكن عمار– رحمة الله عليه – فتح المصحف أمامهم قائلاً: لقد علمنا محمد ﷺ أن نعبد إله واحد فقط.

وأتذكر أن أبا سفيان كان معتادًا على أن يلف حول عنقه سوطًا كأنه حية. وعندما قال عمار: إله واحد. انتصب السوط مثلما ينتصب الشعر على ظهر كلب أو قطة غاضبة.

في الحقيقة فإن أبا سفيان ليس أردأ أصحاب العبيد، فأنا مازلت أتذكر كثيرون من يمتلكون العبيد في الطائف أسوء منه بكثير، حتى عبيد أبي سفيان يعتقدون أنه ليس سيئًا مثل غيره.

فهو لا يرفع سوطه أبدًا طالما في إمكانه رفع حاجبه، وهذا كافي جدًا لتنفيذ ما يريده، ولكن أفزعني كثيرًا جدًا بنعومة صوته وهدوءه وهو يتحدث ويناقش عمار، لقد أُفزع عمار نفسه باستمراره في مناقشته رجل لرجل متساوين.

سأله: إله واحد؟ – سأله بصوت يغلب عليه المنطق صوت يغالبه حب الفضول – ولكننا لدينا ثلاثمائة وستون إلها يعتنون بنا.

وأذكر وقتها شيئًا نادرًا جدًا: فراشه بيضاء خارج النافذة المقابلة لنا واقفة لا تطير.

وأتذكر أبا سفيان يلف حول عمار. وأتذكر.. وأتذكر. ولماذا لا أتذكر؟ في هذه الغرفة وفي الدقائق التالية. إن حياتي كلها تغيرت.

ألا يعرف محمدًا أننا نعيش من وراء بناء معابد، ومنازل للآلهة؟ فجميع القبائل لها آلهتها الخاصة بها والتي تعبدها، وكل عام تأتي قبائل العرب إلى مكة من أجل التعبد والشراء منا، فالآلهة هي للعبادة والتجارة وزيادة الدخل(١٥).

ألا نقوم نحن برعاية الفقراء والمستضعفين؟ ألا تحصل أنت نفسك على نصيبك؟ والآن... وصمت لبرهة كي يجعل لكلماته القادمة وقعًا.. وتأثيرًا... هل

(15) أخشى القول: إنه الآن نجد كثيرين للأسف الشديد يتربحون بالدين.

يجب أن تستبدل ٣٦٠ إلهًا بإله واحد، إله لا نراه بأعيننا(١٦)، والذي تفترضـــون أنه يتواجد في كل مكان، في هذه الحديقة بالطائف، في المدينة المنـــورة، وفـــي القدس على القمر. ما فائدة مكة إذن؟ مَنْ سيأتي إلينا هنا طالما أن الله لديهم فـــي بلادهم في مساكنهم في كل مكان؟

لقد هاجم أبو سفيان أمير التجار فكرة الإله الواحد، وكان الأمر سوف يمر ودون أن يتأذى أو يؤذى أحد، إذا لم يعمل سيدي على إشراكي فـــي الأمـــر(١٧). فجأة سمعت اسمي، ووجدتني أنطلق مسرعًا مبتعدًا بظهري الملتصـــق بالحـــائط دائمًا.

بطريقة ناعمة كالحرير اقترب أمية من عمار قائلاً: "أنت تقول إن العبـــد مثله كمثل سيده تمامًا؟" وانتفض الرداء الحريري من على ظهره موضحًا مـــدى غضبه وتوتره وارتجاف جسده كله.

"هل العبد الأسود بلال الذي اشتريته بمالي يساويني تمامًا؟" وانتظر برهة ليرى وقع كلامه على السامعين.

أنا بلال العبد الأسود في الحقيقة خارج تمامًا عن هـــذه المناقشـــة وهـــذا الموضوع، لماذا يزجون بي وينادون على اسمي مساو أو غير مساو.

([16]) دراسة هامة جدًا بتأثير المادة (المال، كل ما هو مادي) في مقابل تأثير الروح والمثاليات، والأخلاقيات. العالم اليوم يتجه بسرعة نحو المادة في وبجميع أشـــكالها، ولا يعرفـــون عـــن الروحانيات والمثالية سوى اسمها واستخدامها في المناسبات، للحصول على المادة أيضًا.

([17]) اليوم العرب كأجبن ما يكونوا، لا كلمة لهم، ولا خلعة لهم، ولا وحده بينهم، إنهم كما قال الرسول الكريم الصادق الذي لا ينطق عن الهوى: يتبعون الأجنبي الكافر فـــي كـــل شـــيء، فأصبحوا لا شيء، وتداعت عليهم الأمم الكافرة كتداعي الكلاب على القصـــعة. ولعـــل فـــي إسرائيل وأمريكا أوضح وخير مثال على تعفن الأمة العربية الإسلامية، وسوف يكون الآتـــي ولن أقول المستقبل فلا مستقبل للأمة العربية ما لم نتمسك بالدين الحق.

إنني لا شيء... حتى أمية عندما ضحك ساخرًا، ما كان ينتظر إجابة على سؤاله، والذي شاركه في هذا كل السادة المجتمعين، لم يكن أحـدًا فـي حاجـة للإجابة على السؤال حتى أمية نفسه.

ولكن عمار.. يا له من غبي اندفع ليجيب على السؤال الذي لم يحاول أحدًا من المجتمعين حتى صاحب السؤال نفسه أن يجيب عليه، أو حتى يتوقع من أحد أن يفعل ذلك.

ولكن عمار... الغبي.. قال: لقد علمنا محمد ﷺ أن جميع النـاس وجميـع الأجناس وجميع الألوان متساوون أمام الله.

وخيم سكون رهيب على المكان، ثم سمعت اسمي ينادى عليه ثانية بلال، وكيف لي أن أعرف أنه عندما نادوا على اسمي أنا كانوا ينادون علي من حياه، إلى حياه أخرى؟ الله وحده هو الذي يعلم ما ينتظر الإنسان كل لحظة وأخرى.

أسرعت ملبيًا.

بلال، وضح واشرح لهذا الرجل الفرق بين سيد من أسياد مكـة وبينـك. اصفع وجهه بالسوط كي يتعلم فمه ألا ينطق سوى بالحق والصحيح.... وحتـى هذا اليوم وتلك اللحظة لم أكن أدري ولا أعلم معنى وقيمة كلمة الحق، حتى ولو كان ثمنها الجلد بالسوط أو الموت، هل كلمة الحق ثمنها الجلد حتى الموت؟ مـا هذا العالم؟

ووُضِع السوط في يدي ونظر عمار لأعلى، نظر إليَّ معرضًا وجهه لـي ليتلقى عقابه.

كيف لي أن أخبرك بما حدث بعد ذلك؟ إنني وحتى الآن كلما تذكرت تلك اللحظة أشعر بطنين في أذني وقشعريرة تجتاح بدني.

إنني أتذكر وجه أمية وقد جحظت عيناه؛ حتى لا يفوتها شيئًا من عملية العذاب، وأتذكر جانب وجه أبو سفيان، فهو رجل يوافق على العنف والتعذيب، ولكن لا يهبط بكرامته وعزته كي يشاهد أو يراقب هذه العملية.

ولكن عمار شاهدته ولاحظته جيدًا، كانت نظراته واضحة مركزة وآمنة. لا يشعر بالخوف ولكن بالهدوء والدعة في قوة، لقد رأيت في عينيه قوة أكثر كثيرًا من عبوديتي.

في هذه اللحظة أنا بلال غيرت الملكية، شعرت بأنني السيد وهو العبد، شعرت بأنني أمتلكه بدلاً من أن يمتلكني هو، ألقيت بالسوط من يدي على الأرض.

– وسمعت بشهقة استغراب تصدر من جميع الواقفين حولنا. فقد عرفوا ما يشاهدونه. وعرفت ما فعلت... عبد ثار على سيده.

– وزحف عمار على الأرض باتجاه السوط، محاولاً أن يلتقطه وأن يعيده ثانية إليَّ، كانت همساته المسترحمة الراجية تترد أكثر من رعشات يده، وهي تضع السوط في يدي قائلا: افعل ما طُلِب منك.. بلال إليك بالسوط، أرجوك خذه.. أرجوك اضربني كما طلبوا منك.... سوف يقتلونك.. بلال سوف يقتلونك.

– ولكن هذه المرة عندما ألقيت بالسوط ثانية شعرت بهدوء عظيم وسكينة فائقة، ورأيت أبو سفيان يومأ برأسه إلى أمية، واخترقت أذناي ضحكات هند، والتفتت إليَّ، لقد عشت طوال عمري وحتى هذه اللحظة بجوار هند، ولكنني لم التفت ولم أنظر إليها مباشرة قبل الآن، كانت دائما تبدو لي كظل كشبح. الآن ولأول مرة أنظر لها بكاملها ومباشرة.

كان أمية هادئًا ساكتًا. "إذا كنت أنت بشر ولك آلهة، فهي بلا شك آلهة سيدك مالكك، آلهتي أنا، إنك لن تحضر آلهة غير مرئية إلى مكان ومسكن

عبيدي، إنني سوف أعيد إليك عقلك، وسأعيدك للطاعة الكاملة، ولكن لـــيس الآن بل غدًا، فالشمس قد غابت وباكر عند القيظ سيكون لي شأن معك.

– وشعرت بالحبال تلتف حول يداي ومعصمي وحول عنقـــي، وتـــركهتم يفعلون بي ما يريدون، ثم قادوني إلى مكان العبيد وطرحوني أرضـًــا بانتظـــار الغد.

* * *

* *

*

بلال ينتظر الموت

- تركوني وحيدًا مع نفسي، تلك النفس التي سوف يقتلعوها من جسدي في الصباح، فأنا أدرى الناس بقسوة وظلم أمية بن خلف. السوط هو أفضل معاملة يتلقاها العبد من سيده، وإلى أن يقرر سيده شيئًا آخر يصل إلى سلبه حياته، الذي يعتقد أنه يمتلكها مثلما يمتلك جسد العبد كله، بعد أن امتلكه بنقوده التي اشتراه بها، إنني أعلم بما سيحدث لي، ألم يعلمني بذلك سيدي أمية بن خلف؟ قد وعدني بأن يسلمني للشمس في الصباح، والشمس تعني الموت المؤكد والمؤلم.

- باستثناء تفكيري فيما سيحدث ويقع لي من الموت بشكل بشع، وجدتني على الرغم مني وبدون رغبة، أفكر في أبواي، رأيت مرة أخرى والدي ووالدتي، اللذان كانا يعملان طوال النهار في الشمس والغيظ الشديد.

رأيت والدي بجسمه القوي، وهو يعمل حتى ذوى ولم يعد له من شيء سوى الشيخوخة، وضياع كل مظاهر القوة، والرجولة.

ورأيت أمي وهي دائمًا تسعل، يخرج سعالها في شبه صفير حاد من فمها، إلى أن خرجت روحها مختلطة بهذا الصوت، ولكن هذه المرة في هدوء وسكينة.

ورأيتهما الاثنين معًا ينظران إليَّ بحب وعطف وحنان وشفقة على مصيري، وعلى ما ألاقيه وما يحدث لي على يد أمية بن خلف.

- لقد كانا عبدين حبشيين آتيا من وراء البحر الأحمر، بعيدًا جدًا من هناك.. كيف آتيا لا أعلم؟ من الذي أحضرهما لا أعلم؟ لماذا آتيا إلى هذه البقعة من الأرض؟ لا أعلم وهما لم يخبراني بأي شيء عن ذلك، لقد نسوا، أو تناسوا كل شيء عن ماضيهم، وحاضرهم، ومستقبلهم... إلا أنني مازلت أسمع بعض الكلمات قالتها أمي: يا بلال إنك ولدت حرًا، وسوف تموت وأنت حر.

ولكنني أذكر أيضًا إنني ولدت في العبودية من أبوين عبيد، وعوملت معاملة العبيد، ومازالت همسات أبواي في أذناي... هل نقتله كي نريحه مما ينتظره من عذاب، إن الموت أفضل كثيرًا من العبودية(١٨).

لقد خلق الله الشمس والضوء كي نرى بها وبضوئها الأشياء بكل وضوح، الشمس ضوئها في العالم كله يعادل ملايين المصابيح، لماذا؟ لكي يرى بواسطتها ملايين البشر الأشياء، حتى النجوم والقمر ضوءها أقل كثيرًا؛ لأن الليل للراحة، ولا يحتاج للضوء والرؤية مثل النهار. وهذا هو تقدير وحساب الله. أما البشر فإنهم يستخدمون ضوء الشمس في حرق وتعذيب البشر.

إنني أتذكر ذلك اليوم الذي أحضروني فيه إلى السوق، حيث تُعرض العبيد للبيع. وقد تم بيعي مرة، وثانية مثلما يبيعون الجمال والأغنام فينتقلون من سيد إلى أخر، يسوقونهم دون أي رغبة منهم ولا رحمه... ياه... إنني أستطيع أن أضحك من هذا الآن، من الضرب بالعصي، إلى الضرب بالسوط، إلى الركل بالقدم.

كانت الحبال التي قيدني بها أمية تحز في عنقي ويداي وقدماي، وتؤلمني بشدة، ولكنني مع هذا أخذت أفكر في جمال الحياة والكون، الجمال الذي مر بي على مدى حياتي التعسة. ما هذا؟ إنه كلب ينبح، ورجل يأتيني شخيره وهو نائم على مسافة قريبة، وأنا ملقي على الأرض أتألم... ياه... إنه عالم كل شخص فيه يعيش عالمه، إن الموت يجمع هذه الأشياء جميعًا، لا فرق بين حشرة غبية، ولا حيوان، ولا إنسان.

([18]) كثيرون من البشر يصادمون ويخالفون هذا الرأي، فنحن الآن نجد العرب يستمرئون الذل العبودية، حتى ولو كانت على يد كافر سافل، ولعل السبب حبهم في الحياة، وخوفهم من الموت وإيمانهم بأن ذلك في يد السيد الأجنبي الكافر، بعد أن رضوا بالعبودية دينًا ومذهبًا، ورحم الله. الأولون... الأولون.

- ما الذي جعلني أمر بهذه الأشياء جميعًا، أنه عمار بن ياسر، هل كان عليَّ أن أضربه بالسوط؟ هل كان عليَّ أن أنفذ ما طلبه مني؟ أو هل كان عليه هو أن ينفذ هذا عليَّ؟ إنه ما كان سيلومني لو ألهبت وجهه بالسوط، لقد طلب هو نفسه مني ذلك، بل والتقط السوط من على الأرض ووضعه في يدي.

- ولكنني بلال العبد الرجل الذي لا يعني شيئًا، اكتشفت أنه ليس هناك في العبودية ما يمنعني - عن الطاعة - عن طاعة مثل هذا الأمر.

- قد تعتقد أو تظن أنني اتخذت قرارًا، لا ستكون مخطئًا، فكيف لعبد أن يقرر شيئا؟ فالذي لا يمكنه الاختيار لا يمكنه أخذ القرار.

- إذن لماذا سقط السوط أو لعلها العصا من يدي؟ إن العبد دائمًا في خوف حتى من نفسه. وأنا لست شجاعًا بهذه الدرجة. أيضا ليس أحمقًا لهذه الدرجة، لدرجة أنني أثور... إن الإجابة تكمن في مكان آخر... أين؟... في محمد ﷺ؟

- لقد شاهدت محمد ﷺ عدة مرات، ولكنني لم أتحدث أبدًا معه، عندما انفض السوق الكبير، وقفلت القوافل عائدة إلى مواطنها؛ بدت مكة منكمشة خالية، اللهم سوق من الوجوه المألوفة للأشخاص المعتادين. كان الجميع يمرون من أمامي ولا يلتفتون أو يشعرون بوجودي، عبد، والعبد لا يلتفت ولا ينتبه إليه أحد، ولكن محمد ﷺ يختلف، إنه ليس كأحد، إنه لا يمر بشخص فيتجاهله، لا بد أن يحييه، لا بد أن يلاطفه وأن يبتسم له، ويشعره بأنه أخ، صديق، قريب، حبيب، إنه الآن الرسول، رسول الله الإله الواحد إله الكون.

- لقد كنت راقدًا منذ عدة ساعات هناك، والحبال تحز في يدي وتدميانها، وكان بعض الأمل يراودني. حقيقة العبد يجب أن لا يأمل في أي شيء، ولكن ربما يتركونني بضعة ساعات، لا بد وأن يكون لي أمل في هذا، فالأمل هو الصديق الوحيد الذي يبقى مع الشخص إلى أن يلقى الموت، إنه يتركه مع آخر أنفاسه.

وأتي الصباح وأتي هواء رطب جديد يدفع أمامه الهواء القديم، هواء اليوم السابق، ملئت رئتاي بالهواء في تلك الفترة، كنت وكما تعرفون أمي لا أعرف القراءة ولا الكتابة لا أعرف كيف أرتب الأفكار، والرغبات، ولكنني أعرف أنه كانت بي رغبة شديدة. أجد شيء لا أعرف ما هو... يا الله... إن الإنسان لا يختار أبدًا لنفسه شيئًا، ولا أن يفكر وينظم ويرتب لشيء سوى الذي كتبته أنت عليه، إن كل شيء يسير بمشيئته والجميع يطيع مسلمًا، لقد سلمت نفسي لله... للإسلام...

- فجأة شعرت برضا وسعادة عظيمة جدًا... سعادة حتى عن الحبال التي تدمي يدي، لم تعد تعنيني كثيرًا، شعرت بروحي منطلقة فرحه، كانت روحي تشدو بألحان تبهجني تطربني، لقد عرفت أن سعادتي، وراحتي توجد في شيء واحد فقط؛ البقاء قرب الله الواحد. لقد عرفت هذه الحقيقة في أعماق كياني وروحي، شعرتها ولم أفكر بها، بدأ قلبي يهنأ، وصليت فارتاحت نفسي واطمأنت وأخذت أحمد الله وأشكره، وأخذ عقلي يهدأ ويصفو في سلام، وبدت لي رحمة الله، وزال عني كل خوف وألم، وظهرت الشمس في كبد السماء بأمر الله.

- وجاءوا إلي فرحبت بهم وسلمت عليهم وشكرتهم، وبدت على الجميع الدهشة، ما هذا؟ إنه لا يترجى، لا يشكو، لا يترحم، لابد وأنه قد جن، لم يعلم أحدًا منهم أنني قد ارتحت بين يدي الله خالقي وخالقهم وخالق كل شيء، وإن كل شيء سوف يفعلونه بي أو لا يفعلونه هو بأمر الله، وعلي أن أطيع أوامره، وحملوني بأيديهم وهم لا يدرون أن يد الله رفعتني فوق كل خوف.

* * *

* *

*

بلال يموت ويحيى

- كانوا في عجله من أمرهم، وكانوا يجرون بي في الشوراع، بينما النوافذ تغلق، فكثيرون هم الذين لا يمكنهم مشاهدة قسوة التعذيب ووحشيته، إن الذين يستمتعون بمشاهدة الألم قلة[١٩] من الناس، ولكن الجميع متفقون تمامًا على كيفية معاملة العبيد، وطريقة تقويمهم وإصلاحهم وعقابهم، وأنا ارتكبت خطأ كبيرًا جدًا، لم أطيع سيدي، وعصيت أوامره، ليس هذا فقط، ولكن على مشهد من علية وأسياد القوم.

إن الحرية لا يمكن تحملها، خاصة عندما يحاول عبدًا ممارستها، الموضوع بالنسبة لأمية بن خلف سهل يسير جدًا، فهو قد سرق، نعم لقد سرقته فقد اشتراني بنقوده، ويجب أن أقدم له الثمن الذي دفعه، وإلا أصبحت من وجهة نظره لصًا استولى على نقوده بلا عائد أو منفعة، لقد ضيعت وأهدرت قيمتي كعبد، إن جلدي وإهانتي هي الشيء الوحيد المفيد بالنسبة له الآن فهذا سوف يلقي درسًا على بقية العبيد.

بعد خمسون سنة شعرت بالشفقة على أمية، فالرجل الغير عادل بالنسبة للآخرين يكون غير عادل بالنسبة لنفسه، طرحوني أرضًا على ظهري، وربطوا ساقي وساعدي كأنني حيوان سيتم ذبحه، وأخذ أمية السوط، ولن أذكر لكم آثار التعذيب والألم الشديد، فالألم يقع لحظة حدوثه، ولكن لا يستمر مع الزمن الألم النفسي، هو الذي يستمر إلى ما لا نهاية، ولقد قيل بالفعل العديد والكثير عن الألم والتعذيب والعذاب الذي وقع علي... ولكن الله أقوى من الألم، الله أقوى من كل

---

(19) للأسف الشديد في هذه الأيام ترى الناس يستمتعون بذلك، فالوحشية والتعذيب ومشاهدة هذا هي متعة في حياتهم العملية، وفي فنونهم وأعمالهم الفنية والسينمائية.

عذاب... الله أقوى من السوط... الله أقوى من الشمس؛ لهذا لم أشعر بشيء، فلا الشمس ولا السوط بقادرين على أن يلمسا الروح والنفس... كل الذي شعرته، كل الذي أحسسته، كل الذي أحببته كل الذي أردته.. ناديت عليه.. سألته.. أحـــدٌ... أحدٌ... أحدٌ... أحدٌ.

أنا... بلال الذي كان صوته يدعو الملايين من البشر للصلاة، فـــي هـــذا الوقت لم أكن أعلم أو أعرف شيئًا عن الصلاة، ولكنني عندما دعوتـــه باســـمه.. الذي أعرفه.. أحدٌ.. أحدٌ... أجابني على الفور، شعرت بإجابته في صميم قلبي، لم أصرخ، لم استرحم، لم أطلب منهم بل منه هو، الله الأحد.

إن كل عذاب وتعذيب له حد له نهاية، وتخيلت أني سأموت فجأة، فيصاب أمية بخسارتين، أو بمعنى أدق سوف أسرقه مرتين: مرة إنني لم أقم بدوري لـــه نظير ما دفعه من مال لشرائي كعبد له، ثم مرة ثانية بموتي فأحقق لـــه خســـارة كاملة.

وأثناء التعذيب أقبلت هند زوجة أبو سفيان، فقد سبقها عطرها النفاذ الذي غمرني عندما انحنت عليّ تسمع ما أنطق به من كلمات أحدٌ، أحدٌ، ثم اســـتدارت مولية وهي تضحك، لقد كانت ضحكة هند مميزة وجميلة ورقيقة جدًا.. وقالـــت: أقسم بالله أن العبد هذا العبد لا يشعر بالتعذيب، أنه يبشر بكلماته. بعـــدها هـــبط السوط علي بقسوة أكثر مرة... وثانية... وهكذا.

كنت أتعجب هل ستخرج روحي مع واحدة من تلك الضربات؟ من يدري إنهم فقط الموتى الذين يدرون إنه قد ماتوا، ولكنني أؤكد لكم إن إحساسي بالعذاب توقف حتى بعد أن بداوا في وضع الحجارة الملتهبة والثقيلة فوق صدري، لقـــد شعرت بأن الذين يعذبونني بعيدين جدًا عني إنهم يفعلون أي شيء يقدرون عليه ولو كان غريبًا، ولكنني كنت بعيدًا عن متناولهم، كنت أنظر إليهم وأراقبهم وهم

يتفننون في تعذيـــبي، مثلما كنت أنظر من قبل للماعز وهي ترقص في ســـوق عكاظ.

أغلقت عيناي ونظرت للسماء، ورأيت فجأة أمامي الكثير من الجنان المليئة بالأشجار الغنية بالثمار، وسمعت خرير المياه، واســـتمتعت برطوبـــة الظـــلال، ووجدتني أسير بين العديد من الشباب رجالاً وإناثًا، نســـير ســـعداء مســـتمتعين مرفوعين الرأس في عزة وكرامة وكبرياء، وأخذت أنهل من نبع، كلما شـــربت ازددت حبًا ورغبة في المزيد، وشعرت أنني قريب جدًا... قريب جـــدًا... مـــن الله... أحدّ... أحدّ... أحدّ. ما هذا... حلم... خيال... أوهام...؟ أم هـــو صـــفاء ذهن؟. أم ترى أنهم أصابوني بالجنون من جراء التعذيب الشديد؟

لقد رأيت الجنة التي يتغنى بحسنها وجمالها الشعراء، ولكنني مازلت أسأل نفسي، هل أنا بلال بن رباح العبد الواقع تحت التعذيب والإصلاح.. أرى أمامي بحق أرض الميعاد، الأرض الموعود بها كل عبد طاهر نقي عندما يموت؟

* * *

* *

*

بلال يباع مرة ثانية [يُفتدى]

وسمعت صوت نقاش حاد صوت أمية بن خلف وشخص آخر لا أعرفه، وحاولت أن أفتح عيناي، ولكن الشمس كانت في كبد السماء تعمي وتغشي الأبصار، كان الحديث يدور عن نقود، وهذا شيء غير طبيعي وغير عادي، ففي مكة المال إدمان، كما لو أن ومعدة الناس لا يحركها سوى المال، والوقت يسيره الدرهم، لم أكن متهمًا، وعدت لنومي الاضطراري ثانية، مبتعدًا عن وجوههم، مبتعدًا عن أصواتهم، مبتعدًا عن العبودية؛ لأنني الآن أعرف أنني كنت لا أعرف شيئًا من قبل؛ لأن الموت عندما يأتي، ويأخذ الله روح الإنسان بين يديه يتم ذلك في هدوء وراحة ورحمة.

سمعت صوت ثالث إنه صوت أبو سفيان، إنها السلطة تتحدث بنفسها "إنه ضد العرف الاجتماعي والتقاليد السائدة أن يبيع أو يشتري أحدًا أثناء قيامه بتأديب أحد عبيدة" صاح أمية بن خلف: إن العبد قد مات بالفعل، إنه ميت، وإذا كان أبو بكر يريد أن يشتري جثة مقابل مئة درهم فهو حر ولكنني أعجب لذلك.

سمعت صوتًا جديدًا لاسم جديد أبو بكر؟ لماذا هو هنا؟ حتى وضد الشمس فتحت عيناي، كان الحديث بينهما يتوقف ثم يستأنف، ثم سمعت شهقة، ومرت لحظة، ثم سمعت صوتًا غريبًا عليَّ يقترب مني ويناديني باسمي، وسمعت صوت أمية بن خلف يختلط بصوته، سمعته يقول: لقد شاهدت العبد يرفث بقدمه إنه به روح إنه حي. ثم اقترب أمية كثيرًا مني وصاح في أذني: تنفس أيها العبد التعس تنفس أيها الحيوان الأسود.

ما هذا؟ الرجل الذي كان يسعى جاهدًا في تعذيبي حتى الموت، الرجل الذي كان يسعده ويمتعه موتي يريدني حيًّا الآن، إنه يخشى على المائة درهم،

حقيقة الحياة مليئة بما يضحك، ثم سمعت الأصوات تتعالى ثانية: إنـــه يســاوي مائتي درهم يا أبا بكر ارفع الثمن أعطني مائتي درهم وخذه فهو لك.

وفكوا الحبال من حولي ورفعوا الحجر عن صدري، فقد بــاعوني مـــرة ثانية، وساعدني شاب على النهوض، كان صـــعبًا جــدًا علـــيَّ أن أرى وجهـــه بوضوح، ولكن بعدها عرفت أنه سعد، لم أقل أي شيء، فلم تكن هنـــاك حاجــة لقول، فقد قيل كل شيء: "أنت حر الآن يا بلال لقد تحررت من العبودية".

وكان أمية يعد في نقوده غير مصدق ثم قال: لقد دفعت مائتي درهم فـــي هذا العبد، ولكن دعني أخبرك لقد كنت سأوافق على مئة درهم. وضـــج القـــوم بالضحك ساخرين.

وهنا ظهر أبو بكر رأيته لأول مرة وقال: لقد ضحكت من نفسك، والله لو طلبت مني ألف درهم نظيره لدفعتها فورًا. وتأبطني أبو بكر من جانب وسعد من جانب آخر، وسحباني سحبًا حيث أن قدماي ما كانتا تقويان على حملي.

وبقيت نائمًا في حجرة مظلمة لمدة خمسة أيام في منـــــزل أبـــي بكـــر، يمسحون جسدي يوميًا بالزيت، في محاولة لإزالة آثار السوط، بينما كنت أصحو وأغيب عن الوعي بين الحين والحين، وصحوت فوجدت رجلاً يصلي في جانب من الغرفة وغفوت ثانية.

وبعد ستة أيام كنت قادرًا على النهوض والسير عدة خطوات لاستنشـــاق الهواء، وكم كان سرور أبي بكر عظيمًا؛ لذلك أحضر عنـــزه وحلبها وقدم لـــي كي أشرب، ثم قال لي: إن رسول الله ﷺ قام بالصلاة لي بجواري ولمدة ثلاثـــة أيام حتى زالت عني الغمة، وعندما تأكد من نجاتك وإنك بخير تركك. إنني لـــم أرى إنسان في مثل هذه السعادة، ودخل بلال في الإسلام هكذا. قال: باكر سوف أذهب معك لمقابلة محمد ﷺ سويًا.

لقد قالوا إنني ثالث رجل دخل في الإسلام، ولكن أهم شيء المكانة التـــي حصلت عليها بإسلامي، إنها شيء عظيم، لقد كنت في الحقيقة تاسع من أسلم، لقد كنت فخورًا جدًا بإسلامي، وبأنني أقل المسلمين مكانه، لقد أخذوني مـــن تحـــت الحجارة عبدًا أسود لأصبح مسلمًا حرًا وكفى.

* * *

* *

*

بلال يقابل محمد ﷺ

جبهة كريمة، مضيئة، شريفة، بارزة، واضحة، صريحة، غنية، وعقل راجح واضح، وابتسامة تدخل إلى داخلك تسعدك وتجعلك كلك بسمة، عينان سوداوان، بهما ظلال بنية، واضحتان نقيتان صريحتان، يد ثابتة قوية، عندما تصافحك تشعرك بالرضا والأمان، خطوات ثابتة خفيفة كما لو كان ينساب فوق الماء، عندما يلتفت إليك يلتفت بجسده كله يهتم يحتويك، إنه محمد ﷺ، إنه محمد رسول الله الواحد الأحد.

عندما جئت لحضرته كان جالسًا فوق حصير من القش بجوار علي بن أبي طالب ابن عمه، نظر إليَّ وامتلأت عيناه الذكيتان بالدموع، وصاح علي بن أبي طالب الذي كان مازال طفلاً صغيرًا، صاح وهو يمسك بيد رسول الله ﷺ لماذا تبكي يا ابن عماه؟ هل هذا الرجل سيء؟ فأجاب الرسول الكريم قائلاً: "**لا.. لا.. إن هذا الرجل تسعد به السماء**".

ثم نهض بسرعة واحتضنني "**سوف يذكر لك على مدى الزمن إنك أول من أوذي واضطهد من أجل الإسلام**".

ومنذ أن توفى أبي وأمي لم أجد الدموع تملأ عيناي مثل تلك اللحظة، شعرت بأنني حُمِلت حملاً من أسفل الأرض لأصل لعنان السماء، وفي سعادة لم أشعرها مطلقًا.

ماذا حدث؟ محمد رسول الله ﷺ... يبكي.. من أجلي أنا؟

ثم أخذ محمد ﷺ بيدي فأجلسني بجواره، ترددت فأنتم تعلمون أنني لم أكن معتادًا على الجلوس في حضرة علية القوم، أو في حضور قريش، فما بالك وهو رسول الله، وجلست بجواره ولأول مرة، وبدأت صداقتي له من لحظتها ولمدة

اثنتي وعشرون عامًا، وحتى ليلة وفاته كنت أمشي معه أقف معه أجلس معه في المدينة، كنت أنا الذي أوقظه في الفجر حيث أقوم بالآذان للصلاة، كنت أنقر بخفة على باب منـزله قائلاً: الصلاة، الصلاة. نعم كنت أحد صحابة محمد رسول اللهﷺ، وهذا الشرف يفوق كل الأباطرة والملوك.

كانت صحبته تفرح القلوب وتهنئ النفوس، حتى الأطفال كانوا ينجذبون إليه يسيرون يلعبون يسعدون بنوره، حضر إلى المسجد يومًا وعلى كتفيه طفلة صغيرة تضحك في سرور وغبطة، وهي تعبث بشعره في سعادة، وكان يبتسم فرحًا لإحساسه بسعادتها وفرحتها، لقد كان الجميع ينجذبون إليه، فكلامه وصوته نغم موسيقي تملأ النفس والوجدان وتسعد الجميع، وكان يعرف لفه الجميع كيف يتحدث مع الصغير والشاب والعجوز مع المرآة والرجل، الكل يتمنى الحديث معه، والكل يسعده سماع صوته، كان الطفل يجد فيه طفلاً صغيرًا يفهمه أكثر من طفل في سنه، وكذا الشباب، وأيضًا الشيوخ، وكانت هذه الفتاة الصغيرة السعيدة تدعى "أمامة".

يجب أن لا أسترسل في عرض ذكرياتي، وأن احتفظ بمستودع قصصي، إن عقلي يسترسل في تلك الذكريات، لقد عشت حياتي معه هانئًا، عشت حياة جميلة متذكرًا كل ما فعله وجميع ما قاله.

وكم كنت سعيدًا راضيًا وأنا أرى السيدة خديجة زوجة الرسول ﷺ وأطفالهما – بناتهما – الأربعة: "زينب، ورقية، وفاطمة، وأم كلثوم". لقد كانوا يمثلون الرحمة والعطف والحنان بالنسبة لي، وكم أسعدوني بسؤالهم لي صف لنا جبال الحبشة وأشجارها، تلك التي لم أكن بالطبع أعرف أي شيء عنها.

وأحضرت أم كلثوم سلة مليئة بالبلح، وأخذ الرسول الكريم ينتقي البلحات الناضجات الطريات والأكثر حلاوة ويقدمها لي، كما لو أنه ليس مناسبًا أن أتناول إلا ما هو ممتاز طيب، وبعدها يضع يده الكريمة ليحصل على أول ما تصل إليه

أصابعه، ودون أن ينظر يتناولها ويأكلها، يا له من رسول كـــريم رســـول رب العالمين الرحيم، ثم كانت السيدة خديجة تصب لنا بعد ذلك لبن الماعز، الذي كان ما يزال دافئا؛ لأنه من الضرع مباشرة، لقد كانت أكبر مـــن الرســـول الكـــريم بحوالي خمسة عشرة عامًا كانت امرأة طويلة وجميلة، تسير بعزة نفس وكرامة، لقد دام زواجهما خمسة وعشرون عاما، وإلى أن توفيت وهو في الخمسين مـــن عمره لم يتزوج عليها، ولم يفكر حتى في ذلك، لقد كانت وفاتها صـــدمه آلمتـــه كثيرًا، كان عام حزن حقيقي لم يفارقه أبدًا أبدًا، لم يفارقه حزنه علـــى فراقهـــا، حتى حزنه على ولديه اللذان توفيا صغيران كانت تقاسمه الحزن فيهما.

هبط الظلام وأرسل بظلاله وبدأ الهواء يتحرك في مكة، والذي كان غائبا منذ الظهيرة، وبحيث يتنفس الإنسان بصعوبة، أصبح الآن من السهل التنفس ثانية في مثل هذه الأوقات يمكنك بسهولة سماع صوت الهواء والإنســـان يحـــاول أن يتنفسه، فكل شخص يلهث بشدة من أجل الحصول على الهواء.

نهض الرسول الكريم قائلاً: دعونا نخرج للساحة لنتنفس الهـــواء البـــارد. وحاولت أن أتبعه لكنني شعرت بوهن شديد نتيجة للتعذيب وآثاره، سقطت علـــى الأرض وكان أبو بكر قريبًا مني فاحتملني بين يديه، وطلبت السيدة خديجة مـــن بناتها إحضار بطانية وبعض الزيوت الدافئة، ولكن محمد رسول الله كانت لديـــه طريقه أخرى للعلاج "**حاول أن تقف اجعل الدم يجري في عروقك**" ومد يديه إليَّ لم أكن أعتقد أبدًا أن ساقاي قادرتان على تحمل ثقل جسدي المنهك، تناولت يديه ونهضت في خفه وشعرت بأنني تركت كل الآلام والتعب علـــى الأرض حيـــث سقطت.

بالطبع لن تعتقد أن هذه معجزة فعلاً؛ لأنها لم تكن كذلك، فهو لم يكن يعالج المرض، ولا يشفي العبيد المعذبين، ولا يحيي الموتى، ولا يسير على الماء، ولا يجعل الحديد يقوم، فعندما سخر منه المشركون ومن إنه لا يقـــوم بمثـــل هـــذه

الأعمال تركهم ونأى عنهم، ولكن عندما مد يديه إلي وحملني وشجعني على النهوض والمشي مشيت وشفيت وسعدت، هذا هو الذي حصل لي إنها ليست معجزة، فأنا أعرف تمامًا الرجل رسول الله ﷺ، إنني أضحك من قبل هذه الكلمات، إنه منحني الثقة القوة الأمل الرغبة القدرة على النهوض والمشي فمشيت، لقد أعطاني القوة كي أتغلب على الألم، إنه يعرف تمامًا قدرات وقوة كل شخص، ويجعله يتعرف عليها ويستخدمها.

إن محمد ﷺ يعيش في حدود قدرات وإمكانيات الإنسان العادي، أن يعيش حياة المواطن العادي ويموت موتة المواطن العادي، ولكن الله الواحد الأحد منحه قدرات أكبر كثيرًا من جميع قدرات البشر بم فيهم الأنبياء بل والملائكة بل وكل شيء، لقد كشف له عن سر وقوة الكلمة، الكلمة هي كل شيء، وكل متدين يعلم هذا تمامًا الكلمة القرآن معجزة المعجزات، وأثناء سيره في هدوءه الرائع الثابت الرحيم سألني بصوته الهادي الرحيم الجميل: **بلال بأي طريقة تعرف الله؟**

"أعرفه بقلبي" ولكن الإجابة لم تكن كافية، مشى عدة خطوات ثم سألني ثانية بعد أن توقف وبطريقته المتميزة العجيبة استدار إلي بكل جسمه بكل اهتمامه.

"**نعم يا بلال بالبحث عنه، بالصلاة له، بعمل كل شيء طيب يأمر به؛ تصبح من أنصار الله وأتباعه، ولكن تذكر جيدًا إنه ليس أنت الذي يجد الله، ولكن الله هو الذي يجدك، أنت لا تختاره ولكن هو الذي يختارك**" كان الاهتمام والجدية تملأ وجهه الكريم، وكان صوته الهادئ القوي الثابت الواثق يهز أوتار القلوب ويشجي السمع والفؤاد. أنا رسول الله قالها وأعلم أن الطريق إلى الله هو الإسلام.

وكانت هذه هي ثاني مرة أسمع فيها هذا اليوم كلمة- الإسلام- ودون أن أعرف معناها، على الرغم من أن كل مرة سمعتها كانت تعني لي شيئًا ما، بدا

لي أنه عرف تمامًا جهلي، فوضع يده الطاهرة فوق كتفي "الإسلام هو الاستسلام الكلي لرغبات وتعاليم الله، الله الواحد.... الأحد".

أنزل يده واستدار سائرًا في حياء وهدوء كما لو كان قد أخبرني بأكثر من اللازم "**كل شيء بمشيئة الله**" تمتم بهذه الكلمات وكأنه يقولها لنفسه، ثـم تبعهـا "**الآن يجب أن أذهب للصلاة**". وبهذا انتهى أول لقاء لي مع محمد ﷺ رسـول الله ﷺ وبهذا بدأ إسلامي.

* * *

* *

*

بلال وأبو بكر ﷺ

الظروف جميعها والحياة كلها تغيرت، الآن أعيش في مكان ليس به ركن خاص بالعبيد، حيث ترى الوجوه كئيبة خائفة مرتعبة، والأيدي والأرجل مرتعشة، ورائحة العرق عرق الخوف تملأ المكان.

أبو بكر إنه مثل خادم أكثر منه كسيد، يخدم بنفسه كل قادم إلى منزله، أول عمل له في الصباح الباكر أن يحلب (عنازه)، لا لا لقد أخطأت أول عمل في الصباح هو الصلاة، وبعد ذلك يحلب عنزاته الثلاثة بالنسبة لرفاق وصحابة الرسول، معروف ومشهور عنهم الرحمة والشفقة، ولكن أبو بكر هو أكثرهم رحمه وشفقة، ولكن رغم كل شيء وعندما يدعو الداع للجهاد تجد أبو بكر أول الملبين وأول الصفوف، وفيها كانت قسوة أو وضاعة العمل الذي يحتاجه المنزل.

فإن أبو بكر لا يستنكف ولا يتأفف من أداء وإنجاز أي عمل، حتى التاريخ وحتى المكانة التي وصلها كأول خليفة للمسلمين لم تغيره مطلقًا، فعندما أصبح خليفة رسول الله وحاكم الدولة الإسلامية، التي تسيطر على نصف العالم، وعندما كانت جيوشه تطيح بالإمبراطوريات كنت تجده أين؟ جالسًا أمام باب منزله يصلح حذاؤه المقطوع. على الأقل هذا ما وجدته عليه عندما حضرت إليه لأزف له بشرى استيلاء المسلمون على حصن بابليون في ربيع سنة ٦٣٤.

لقد قابلت أبو بكر قادمًا بعد حلبه لعنزاته، فشكرته مرة ثانية؛ لأنه اشتراني ولكن بدلاً من ذلك أخذ يشكرني بشدة، كما لو كنت أنا الذي قدمت له المعروف وجعلته ينفق نقوده من أجل تحرير عبد مثلي، قال: لقد علَّمنا محمد ﷺ أن تحرير عبد يرضي الله.

لقد كان يتجنبني؛ لأنه كان يخشى أن تظهر على وجهه وروحه علامات الرضا؛ لأنه حررني إرضاء لله، وحتى لا يحرجني، إنه يعمل لله وليس لنفسه، مرضاة الله هي كل ما يرضيه.

آه يا الله... بلال.... بلال إن أمامك عملاً كبيرًا جدًا سوف تعمله، سوف تصبح عبدًا يطلب منه أكثر مما يطلب من كل العبيد، إن المطلوب من عبد الله كثير يا بلال.

ماذا أقول يا سيدي، نعم أنا سعيد بأن أكون عبد الله.

وضع وعاء الحليب على الأرض واقترب مني وأمسك بأذني، ثم ضرب رأسه في رأس وهو يضحك "نعم يا بلال كلنا عبيد لله".

ولكن كلمه سيدي هذه ليست لي، لا بد أن تنسى الماضي نحن عبيد الله، ولا سيد بيننا إلا الله، يجب أن تعيش حياة الأحرار، فأنت الآن حرًا مثلما خلقك الله تمامًا، ويجب أن تتعلم حياة الأحرار. كان أبو بكر يحضر لي كل يوم قلمًا وقطعه من شجرة ومداد، وكان يحضر لي بعضَ السير القديمِة، ويعلمني كيف أنقلها، ثم كلمة بكلمة تعلمت الكتابة والقراءة بصوت عال.

كان يعلمني ألا أخاف من خيالي، فيقول: خيالك هو لك ملكك، ويجب أن تواجه الجميع، وأن تنظر إلى وجوههم وعيونهم، وأنت تحدثهم لا تخشى سوى الله وكلمة الحق.

وقفت منتظرًا إلى أن تنتهي قطعة حامل من لعق بقية من لبن وضعة لها في إناء، قديمًا منظرًا كهذا كنت على الفور ألعن القطة، ثم أركلها بقدمي، ولكنني الآن تعلمت.. تعلمت كثيرًا.

واذكر كيف أمر محمد ﷺ جيشه القوي المنتصر المعتز بقوته أن يلف من طريق طويل، حيث كانت هناك عنزة أو ما شابهها تضع مولودها، وحتى لا يزعجها الجيش، محمد ﷺ آخر الأنبياء والرسل، وأول الأنبياء والرسل بل

والإنسانية كلها في الرحمة والشفقة بالحيوان قبل الإنسان. ولا أنسى حديثه العذب "**عذبت امرأة هرة فدخلت فيها النار**"... وهو يبشر الجميع لمجرد أن يقدم أحدهم الماء لروح حيوان أم إنسان.

وكان أبو بكر يجهز لي الأقلام ويعلمني يوميًا، وكنت أعد المداد من التيلة (أوراق نبات التيلة بعد غليها)، وكنت أكتب على الجلود ولحاء الشجر وأكتـــاف العظام العريضة للحيوانات وعلى الحجارة، وتغير نظام أبو بكر قليلاً، أصبح يبدأ بصلاة الصباح، ثم حلب العنزات، ثم إعداد الأقلام كي أكتب.

كان يقف بجواري يراقبني ويساعدني، ويوجهني، ويطلب مني دائمًــا أن أقرأ ما أكتب وبصوت عال. ويقول: اقرأ اسمع ما تكتب، هل هو جيد؟ إذا هـــو عمل طيب استمر وفقك الله.

وفي أحد الأيام بينما كنت أجهز المداد، حضر أبو بكر فرحًــا وســـرورًا متهلل الوجه وهو يقول: أتدري يا بلال إن الرسول يساوي المداد بدماء الشهداء، توزن مداد العلماء بدماء الشهداء يوم القيامة، وأمسك بيداي الملوثتـــان بالمـــداد وقبلهما.

وذهبت إلى حيث أضع المداد، ونظرت إلي يداي إذ هما سوداء في مـــداد أسود.

* * *

* *

*

بلال يخبرنا عن حياة محمد ﷺ المبكرة

حان الآن الوقت لأحدثكم عن حياة الرسول محمد ﷺ، وذلك إلى وقت زواجه من السيدة خديجة.

- مولده كان اختيارًا من الله، فقد انتقى فقيرًا يتيمًا، فعبد الله والد الرسول محمد ﷺ لم يرى ابنه، ولم يستمتع بعظمته، فقد مات ومحمد ﷺ مازال في رحم أمه، ولم يترك له شيئًا سوى سمعه طيبة لا تطال وخمس جمال (نوق) وبعض الخراف.

لقد ولد الرسول الكريم كما تقص علينا السيرة في ٢٠ أغسطس سنة ٥٧٠م هذا بالتقويم الميلادي، حيث اهتم العالم كله بهذا الميلاد الكريم، وإذا كانت التواريخ غير مؤكدة تمامًا، فالمسيح ولد كما يسجل له التاريخ المسيحي سنة ٤ قبل الميلاد أي أن التاريخ غير مؤكد ولعل هذا لحكمة ما؟

- وقد ظهرت علامات عديدة تدل على مولده.
- فقد تهللت السماء وغنى الكون ولمعت النجوم وتلألأت في السماء.
- وانشق إيوان كسرى.
- وطفئت النار المقدسة في فارس والتي ظلت مشتعلة آلاف السنين.
- ووضعته السيدة آمنة بالبُشر والسعادة والفرح وبغير ألم.
- في سن الرابعة قامت الملائكة بشق صدره وغسله من كل شر، ويجهزه لاستقبال أفضل وأكمل الرسالات السماوية.
- ويقولون: إن الناس تتناقل الأخبار وتقول الأقوال؛ لأنهم في حاجة لذلك.. ولكن المسلمون ليسوا في أية حاجة لذلك، فلديهم القرآن كتاب الله وكلماته، وهي أكثر مما يكفي، ولكن هذا لا ينفي أن الكون تغير لحظة ميلاد الرسول الكريم.

فما حدث من غسيل صدر الرسول شاهده العديد من الأطفال، وتحدثوا عنه في براءة لم يكونوا يدروا شيئًا، ولم يكونوا في حاجة لشيء أبدًا، إنهم أطفال يقصون ما يرون، وهذه عادة يعلمها كل من لديه أطفال.

– وعندما بلغ محمد ﷺ السادسة من عمره توفيت السيدة آمنة أمه، وأصبح يتيمًا للمرة الثانية، واحتضنه جده عبد المطلب لمدة عامين، ثم بعد أن توفي احتضنه عمه أبو طالب، الذي كان يحبه كثيرًا ويعتبره أحد أبنائه، ومن ثم لم يفتقد الطفل محمد ﷺ جو الأسرة وحنانها، وعلمه وأخذه معه في تجارته إلى الشام، وكان التجار في مكة يجيدون التجارة وفنونها، ولكن كثيرون منهم لم يكونوا يجيدون القراءة أو الكتابة.

وبالطبع لم يكن محمدًا ﷺ يجيد القراءة والكتابة، فهو لم يتعلم وكأن الله أراد أن توضع رسالته ويحملها من لا يجيد القراءة ولا الكتابة، ولا يحمل أوزارها بل شخص ينقل ما يصدقه ويراه، حق فهو لم يتعلم شيئًا من أحد، ولكن علمه الله.

وأحيانًا أتساءل ترى هل كان المسيح يقرأ ويكتب؟ لا أعلم حتى عندما خط بإصبعه على الأرض، هل كتب شيئًا أم جذب الأنظار إلى أشياء؟ ولكن بكل تأكيد إن السيد المسيح لم يترك كلمه واحدة مكتوبة سواء أختطها هو أو غيره. هذا ما أعلمه جيدًا.

وكانت قصص المعجزات تروى كثيرًا عن الرسول، فيقال: إنه أثناء رحلته لسوريا وفي قيظ الحر، كانت السحابة تظلله. وقالوا: إن راهبًا مسيحيًا تفحصه وتأكد من أنه رسول هذه الأمة، وخاتم رسل الله للبشرية، وكانت بين كتفيه علامة في حجم الدينار تؤكد أنه الرسول المنتظر.

لقد سمعت بصراحة الكثير من هذه المعجزات في العشر سنوات التالية لوفاته، أكثر مما سمعتها في الاثنى وعشرون سنة التي صحبته فيها، اللهم أن المعجزة الكبرى التي يؤمن بها الجميع وإلى قيام الساعة هي القرآن كلام الله.

لقد أخبرني محمد ﷺ أنه كان يرعى الغنم في شبابه، وأن جميع الأنبياء الذين سبقوه رعوا الغنم، سواء كان ذلك في مكة أو دمشق أو أورشليم.

لقد كنت أعجب كثيرًا لماذا لم تتغير المعجزات الستة عشر التي آتها موسى العالم؟ لقد شاهدها الآلاف، ولكن لله حكمة أخرى ولله المثل الأعلى.

لقد أعطى محمد ﷺ القرآن، وبذلك لم يعد هناك حاجة لأي معجزة وقتيه، فالمعجزة الزمنية الخالدة تكفي كل من له عقل وقلب وفؤاد.

لقد ساهم محمد ﷺ وهو طفلاً لا يقوى على حمل السيف في حرب – الفجار –، حيث كان يجهز النبال للمتحاربين، والتي وقعت بسبب قتل رجل مخمور لآخر نائم، وكان محمد يكره هذه الحرب وأسبابها، وكلما تذكرها نصح مستمعيه بالبعد عن ما يسبب مثلها.

وكان محمدًا يتاجر في الأشياء الصغيرة وبكميات صغيرة، ولم يكن إنسانًا عاديًا، وكان العائد غير عادي؛ لأنه كان صادقًا دائمًا مع الجميع بائعًا أو مشتريًا، وكان التجار الكبار يترجونه أن يتاجر في بضائعهم؛ لينالهم الخير قبل المكسب المادي.

وتناقل الجميع خبره وصفاته ذكاؤه حكمته صدقه وعطفه وتوقيره للكبير وعطفه على الصغير، عندما ثارت القبائل على من له شرف وضع الحجر الأسود بالكعبة، ارتضوه حكمًا ومنفذًا ومرشدًا، ووقى الجميع حربًا مثل حرب الفجار بل أشد وأنكى.

لقد نال الجميع شرف حمل الحجر الأسود في رداء محمد، الذي حمله بيده الكريمة من منتصف الثوب الذي تحمله سادة القبائل، ثم أعاده إلى مكانه بالكعبة، وارتضت شيوخ وسادة القبائل ذلك.

* * *

* *

*

بلال يقص علينا قصة زواج الرسول ﷺ

ولقد سمعت لأول مرة باسم السيدة خديجة عندما وضعت أمي في فمي قطعة من البسكويت اللذيذ الطعم وقالت لي: إنه من خديجة سيدة قومها وأشرفهم حسبًا ونسبًا. كان عمري وقتها حوالي خمس سنوات، ولا أنسى ما حييت هذا الاسم، حيث اقترب بحلاوة البسكويت في فمي، إنه اسم جميل حلو ينم عن الرحمة والحنان اللذان كانا هما صفتها، فهي تقدم العطايا والمال والطعام للفقراء من الباب الأمامي والباب الخلفي لمنزلها، كل محتاج سيجد حاجته، ولن يرد أبدًا.

هذه كانت خديجة بنت خويلد كانت نوعية نادرة جدًا، فهي امرأة شديدة الثراء، نفسها شديدة التواضع ومملوءة بحب الفقراء دائمًا، تضع نفسها موضعهم لتحس بأحاسيسهم.

في ذلك الوقت الذي أعطى الرسول الكريم للمرأة حقها ووضعها؛ إذ كانت المرأة من قبل متاعًا تشترى وتباع، وتكره على الزواج والبغاء، تحجب في أستار الظلمات، ينتقص من قدرها، وتحرم من حريتها، تسترق وتمتهن، نساء قليلات هن اللائي حظين بالعزة والمكانة والاحترام في قومهم مثل هند، وخديجة، أما بقية النساء فهن كالأنعام، في الصباح يكابدن تعب وإرهاق العمل المضني، وفي الليل لإرضاء نزوات الرجال، وكانوا دائمًا عرضه للشعراء يشببن بهم، ويصفهن بما فيهن وبما ليس فيهن، فيحرضن ويرغبن الرجال، ونذكر منهم عنترة العبسي في مكة.

وفي الكعبة كانت توجد ثلاث من الآلهة الإناث: العزى، مناة، واللات. ولكنها ما كانت تقدم الكثير من للنساء، مثلما كانت لا تقدم شيئًا للعبيد أمثالي.

إنني أقص عليكم هذا كله كي أوضح لكم القيمة التي رفع إليهـــا الرســـول المرأة، والعلاقة المتكاملة التي كان يعامل بها زوجته خديجة، لقد كانت علاقـــة حب مودة رحمة تسامح تساوي ثقة.

كانت خديجة من خيرة نساء قريش شرفًا، وأكثرهن مالاً، وأحسنهن جمالاً، وكانت تدعي الطاهرة وسيدة قريش، ولقد خطبها عظماء قريش مثل: عقبة بـــن أبي معيط، الصلت بن أبي إيهاب، وأبو جهل، وأبو ســـفيان فرفضـــتهم جمعيًـــا واختارت محمد ﷺ.

وكانت خديجة رضي الله عنها امرأة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم عليه، ولما بلغها صدق محمد ﷺ عرضت عليه أن يتاجر لها في مالها، فأرسلت إليه غلامها ميسره تسأله الخروج إلى الشام في تجارتها قائلة: أنا أعطيك ضعف ما أعطي قومك.

– وتزوجها الرسول وهي ابنة ٤٠ سنة وهو ابن خمس وعشرين سنة.

– عن أبي هريرة ﷺ أن جبريل قال للنبي ﷺ: "**بشر خديجة ببيـــت فـــي الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب**".

وتوفيت خديجة قبل الهجرة بثلاث سنين، وهي يومئذ بنت خمس وســـتين سنة.

– لقد أنفقت خديجة كل أموالها طائعة راغبة ليس على النبي، وإنما علـــى الدعوة إلى الإسلام، وفي سبيل هذا الدين، وهذا معنى قولهم: "إن الإســـلام قـــام بأموال خديجة".

* * *

* *

*

بلال يخبرنا عن دعوة الرسول ﷺ

الذي سأرويه الآن هو أصدق وأوثق ما أعرفه وأصدقه، فهو منقول عن أبو بكر الصديق عن علي بن أبي طالب عن خديجة رضي الله عنها، والتي تنقله عن شفتي محمد ﷺ مباشرة، حيث عايش الحدث بنفسه وأكدته السماء في سورة النجم:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾[20].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بعث الله محمدًا على رأس خمس وستين من بنيان الكعبة، فكان أول شيء آراه الله تعالى من النبوة رؤيا في المنام، فشق ذلك عليه والحق ثقيل والإنسان ضعيف، فذكر ذلك رسول الله ﷺ لزوجه خديجة بنت خويلد فعصمها الله من التكذيب فقالت: أبشر فإن الله لا يصنع بك إلا خيرًا.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كانت أول ما بدأ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء يتعبد فيه الليالي قبل أن يرجع إلى أهله، فجاءه الملك فقال: اقرأ. **فقال: ما أنا بقارئ. قال: فأخذني فضمني حتى**

---

(20) النجم: ١- ١١.

بلغ مني الجهد ثم أرسلني. فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فضمني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني. فقال: ﴿ اقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[٢١].

قال: فقرأتها ثم انتهى فانصرف عني، وكأنما كتبت في قلبي كتابًا، فخرجت حتى إذا كنت في وسط الجبل سمعت صوتًا من السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل. فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر، وجعلت اصرف وجهي عنه في آفاق السماء، فلا أنظر في ناحية فيها إلا رأيته، ومازلت واقفا ما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي، فبلغوا مكة ورجعوا وأنا واقف في مكاني ذلك، ثم انصرف عني وانصرفت راجعًا إلى أهلي حتى أتيت خديجة، فجلست إلى فخذها وأنا أقول: زملوني زملوني. ثم حدثتها بالذي رأيت فقالت: أبشر يابن عمي وأثبت فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة.

ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة نوفل بن أسد بن عبد العزى، وهو ابن عم خديجة أخي أبيها، وكان امرأ تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي، ويكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي فقالت له خديجة: أي ابن عمي اسمع من ابن أخيك. وأخبره رسول الله ﷺ ما رأى، فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى يا ليتني فيها جذعًا يا ليتني أكون حيًّا حين يخرجوك قومك قلت: أو مخرجي هم؟ قال ورقة: نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي. وكان ذلك في شهر رمضان الشهر الذي يتحنث فيه الرسول الكريم بغار حراء.

([21]) العلق: ١- ٥.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥)﴾[٢٢].

وكم ليلة من ليالي رمضان قضيتها بالقرب من غار حراء، التمس ليلة القدر، الليلة التي هي خير من ألف شهر، وكم كانت قدماي ترتجفان وأنا أتسلق الجبل مقتربًا من تلك البقعة الطاهرة، حيث تنزل الوحي بالقرآن على رسول اللهﷺ.

* * *

* *

*

(22) القدر: ١- ٥.

بلال يشاهد الوحي

ربما يغبطنا الكثيرون على سبقنا للإسلام، ولكنني أذكركم بأنه يجب عليكم أيضًا أن تشفقوا علينا لهذا، فكم ارتجفنا وارتج علقنا، فنحن غير مستعدين وغير مناسبين لهذا الحدث العظيم.

حتى نوح جرى فزعًا وهرب عندما ناداه الله، ونحن أناس بسطاء محدودي الفكر والثقافة، نعرف ما نراه بأعيينا وما نسمعه بآذننا. ننقله بصدق دون خلط أو تشويش، فكل شيء واضح جلي يملأ قلوبنا.

اليوم الصغار يعرفون كل شيء، يحسبون بالزاوية والمثلث ويملئون رؤوسهم بحقائق تزيد عما يحمله الجمل من أحمال في رؤوسهم الصغيرة، ولكننا نحتفظ في صدورنا وقلوبنا ورؤوسنا بالجامع المانع بالضوء الأزلي بكلمات الله اللانهائية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ (٤)﴾[٢٣].

مرات ومرات عديدة شاهدت محمد ﷺ في لحظة هبوط وتجلي الوحي عليه، فجأة تأخذه هزه وينظر لأحد أركان الحجرة، وكأنه يبحث لنفسه عن ملجأ، في أشد الليالي برودة كنت أرى حبات العرق تجري على وجهه الكريم، كان جسده كله كأنه يعاني حملاً أو شيئًا ثقيلاً لا قبل به، كان لا يسمع كلام لأحد، ولا يشعر بأحد أنه في حضرة الملك الكريم يستمع منه لكلام الله، ولا يسمع مع كلام الله كلام لكائن من كان.

([23]) الصمد: ١- ٤.

أنه ما كان يعرف متى سيأتيه الوحي، فأحيانا يأتيه وهو في منتصف حديثه مع شخص، أو أثناء ركوبه الجمل على الفور ينحني جانبًا، ويغطي رأسه بملابسه أحيانًا، وفي البداية كأنه يسمع لصوت وكأنه الجرس أو صليل السلاسل المعدنية الضخمة، بعدها يظهر الملك ويتحدث معه، لم يكن لإنسان أن يراه أو يسمعه غيره مهما كان قريبًا منه، ولكن كان يخبر في مكانه، فهناك شعور وإحساس كامل بما يحدث.

بالطبع لم تكن كلمات الله تأتي من الشفاه وحركة الفم، وتسمع كالصوت كانت الكلمات تسمع وتطبع في قلبه، وبعد أن يذهب الملك ويعود محمد ﷺ إلينا وبعد برهة يأخذ في النطق بالكلمات التي لآذاننا أن تسمعها وقلوبنا أن تغيرها، وعندما نطلب منه الإعادة يعيدها كما هي منضبطة منسجمة لا يوجد فعل أو اسم أو صفه أو حدث ليس في مكانه، ولا يدل إلا على معناه، بعدها نسجل كلمات الله على الجلد على العظم على لخاف الشجر.

حاولت مرة أن اقترب بشدة منه تسمرت قدماي، وظللت في مكاني لا أعي شيئًا مما حولي. ويقول ﷺ عن لحظة هبوط الوحي عليه: **"ما نزل الوحي علي إلا واعتقدت أن روحي قد نزعت عن جسدي"**.

واستمر هبوط الوحي على الرسول وسعدت البشرية وهنأت، وشعرنا جميعًا ومنذ البداية في إعجاب وذهول وخشية، ودن حدوث معجزة مادية، كأن تتوقف الشمس أو ما شابه ذلك؛ لأن القرآن هو المعجزة دون عمل أي معجزة نفسية عقلية قلبية توضح لنا، وتسرد وتتنبأ عن ما يفوق كل المعجزات المادية المنتهية الوقتية.

القرآن نصر من الله يتحقق به الانتصار دون سلاح وبالسلاح، القرآن كتاب لم يجرؤ أن يدعي أحدًا أنه كاتبه فهو كتاب الله.

بلال يخبرنا بحقد وكراهية المكيين

لماذا يكرهوننا؟ أنهم ليسوا أناسًا شريرين، إنهم فقط نتاج التقاليد والمفاهيم والعادات القديمة، فهم أبناء الأجيال القديمة؛ لذا يتبعون العادات: عــادات كــرم الضيافة، واحترام قوانينهم، وعادات الشرف والحفاظ عليه، هو قانون الصحراء، وهو القانون الذي عمل وحافظ على بقائهم واستمرارهم، وعلى العلاقة فيما بينهم أن قسوة وصلادة وغلظة قلوبهم مرجعها لقسوة وغلاظة حياتهم، نتيجة لتأثرهــا بالبيئة شديدة الفقر والقسوة، فما يقولون الذين يعيشون فوق ظهر الحميــر هــم اللذين يقسون عليهم ويضربونهم.

إنهم لا يكرهوننا ولا يكرهون إلهنا؛ لأنهم يحبون آلهتهم المتعــددة، إنهــم ليسوا كفره فهم لا يكفرن بالله، ولكنهم يؤمنون بالعديد من الآلهة.

إن عبادتهم وآلهتهم تسير وفق نهج خاص، نهج المنفعة الخالصة وحــب الاتجار وتحقيق الربح، فهو يصنع الإله على الشــكل الــذي يحــب أو يحبــه الآخرون؛ كي يبعه فيحقق له منفعة وربحًا، ثم هو سوف يعتنــي بهــذا الإلـــه ويكرمه ويجله ويضعه في مكان مرموق، لكن على أن يحقق له ما يطلبه، فيدله له على ناقته الشاردة، وأن لم يفعل، وأن لم يتحقق؛ فالويل لهذا الإله.

ولكنني أنا بلال بن رباح الذي عبدت من قبل آلهة وثنية أضــحك كثيــرًا وأعجب أكثر، ولا أتحمل أبدًا مثل هذه الفكرة السخيفة، حتى لا أحكم على نفسي بالجهل والعته، وسوف أقص عليكم بوضوح هذه الآلهة قوتها وضعفها.

نحن نتكلم عن آلهة من الخشب والحجارة، ولكن الوثني لا يعبد أبدًا إله من الحجارة أو الخشب؛ لأنه ليس غبيًا لهذه الدرجة، فهو يعلم أن الحجــارة تتكســر وتتحطم وتتفتت، وأنه يمكنه أن يشعل الخشب ليتدفئ به، ولكن يعبد الروح التي تتسل إلى داخل هذه الآلهة الحجرية والخشبية، فهو يعبد الروح، ولكن لهذه الآلهة

مكمن ضعف كذلك، فالآلهة الموجودة في الكعبة لا يمكنها أن تفعل شـيئًا فـي المدينة، والتي في المدينة لا يمكنها أن تفتح أبواب الكعبة، كل قبيلة لها إلهًا، إن استطاع أن يقدم شيئًا لقبيلته، فهو لا شيء البتة بالنسبة للقبيلة الأخرى، ويظل في نظرها مجرد قطعة من الخشب أو الحجر.

شيئًا آخر، الآلهة ترفع وتسقط وفقًا لعابدها، حتى بالنسبة لروما القديمة(٢٤)، فهم في وقتهم كانوا متأكدين تمامًا أن الآلهة تعتمد في وجودها على الإنسان، فهي تسقط ولا تقدم لها الخدمة والعبادة إذا تجاهلها الإنسان، فيوليوس قيصر كان لـه آلهته، وأغسطس قيصر كان له آلهته، فالآلهة تأتي وتذهب مع الحاكم [تماما مثلما كان في مصر القديمة] فالإنسان يصنع أو لا يصنع آلهة، ويمـنحهم الكثيـر أو القليل لينحني أمامهم طلبًا للرحمة وتحقيقًا للرجاء، أو يمرون عليه متجاهلين، بل وباصقين فوقه ما هذه القوه غير الموثوق بها، التي يمارسها الإنسان على الآلهة؟

إن الإنسان يصل إلى قمة الإيمان والتقدير واحترام الذات بالإيمان المطلق بالله المطلق ذو القوة والحول المطلق.

إن أحد أسباب كراهيتهم لنا هو عدم القدرة على الفهم الشمولي لقدرات الله الواحد.

إنني أذكر كيف كان الغيظ والحقد يأكلهم عندما كان محمد ﷺ يحدثهم عن البعث.

* في إحدى هذه اللقاءات قام أبو لهب والذي كان سمينًا للغاية بحيث كان يحتاج لشخصين يساعدانه على النهوض في هذا اللقاء، أمسك أبو لهب بقطعة من العظم بين أصابعه السمينة، وأخذ يحركها في وجه الرسول الكـريم، ثـم قـام بطحنها بقطعة حجر ونفخها في وجه الرسول، هل يمكن لله الواحد كما تقول أن

---

(24) أخشى القول أن مثل هذه الآلهة موجودة حتى الآن، وفي روما نفسـها وتعامـل بـنفس الطريقة تمامًا.

يعيد أن يبعث هذه العظمة مرة ثانية؟ هل يمكن لله أن يجعلها إنساناً مرة ثانيــة؟ وقف أمير التجار المكيين مختالاً.

أزال الرسول الكريم مسحوق العظمة من على وجهه الكريم وقال بصوته الهادئ الرحيم الواثق الثابت: ﴿يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (٢٥).

لقد كنت أخاف وأخشى أبو لهب كثيرًا، وفي هذه اللحظة ازدادت خشــيتي وخوفي منه، فقد ارتجت الأرض بشدة تحت وطأة جسده الضخم، وهو يجــري كالمخبول والغيظ يبدو في وجهه الذي انقلب، فالشيطان بالمقارنة بــه محــتملاً، ولكنه رغم كل كفره وكيده على الإسلام إلا أنه أكثر من خدم الإسلام(٢٦).

أبو لهب لا يمكن له أن يتخيل سوى أن جسده الضخم هذا سوف يــوارى الثرى، ويذهب بلا رجعة، فهو لا شيء سوى تلك الكتلة الشحمية، أما روحه فلا يعلم عنها شيئًا، أما الحياة الأبدية الأخرى فلا.

هو مادة سوف تتحلل ولن يبقى منه في التراب من شيء، هذا هو منطقــه إن كان يمكن تسميته منطق، ويشاركه في هذا كل الوثنين، فهم لا يؤمنون بــأي شيء سوى الذي تراه أعينهم فقط، وهم في هذا مثلهم مثل يوليوس قيصر، الذي وقف أمام المذبح وصاح قائلاً: "الموت نهاية كل شيء".

فهو لا يعرف ولا يتكلم ولا يشعر سوى ببدنه فقط، أما روحه فلا معنــى ولا قيمة ولا وجود لها؛ لأن الإنسان يمكن أن يفسد روحــه، يمكــن أن يزهــق روحه، يمكن أن يسود ويلطخ روحه بالعار، ولكنه غير قادر على قتلها، فهو لا يعلمها، يعلمها فقط خالقها ومزكيها بالعمل والفعل الطيب، إن الإنسان يمكنه قتل

([25]) يس: ٧٩.

([26]) لعله يقصد سورة المسد. بسم الله الرحمن الرحيم {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَــى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيــدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥)}.

الجسد، فهذا ما يحدث، أما النفس فلا، فهو لا يعرف لها مكانًا ولا شكل، ولا يستطيع السيطرة عليها، الذي يملك ذلك صانعها الله.

أبو لهب في جهله وغيه وغباءه اعتقد أنه يستطيع أن ينكر قدره الله الواحد ووجوده، بأن يقبض على مثل تلك العظمة ويقول تلك الكلمات الغبية التي جعلت الحضور يضحكون منه، ويفضلون على ذلك ذهابهم لاحتساء الخمر، الإنسان في نظر هؤلاء جثة تلقى في فتحة القبر فينتهي كل شيء.

إنني اذكر يومًا التف حولي هؤلاء الوثنيون يسخرون مني، ويلكزونني[٢٧] بأصابعهم في جميع أنحاء جسدي، وزاد آذاهم حتى أنني تبولت على نفسي، لماذا كل هذا الخوف؟ لماذا كل هذا الحقد؟ لماذا كل هذه النظرة المتدنية للإنسان وقيمته؟

لقد عرفت مؤخرًا السبب الوحيد، إنها الحقيقة تلك التي لا يجرؤ أحدًا على مواجهتها، الكل يخاف الحقيقة؛ لذلك الجميع يعمل على طمسها وإخفاؤها ومحاربة كل من يحاول إظهارها بكل قسوة وضراوة وعنف، يجب أن يسود منطق الحقد والغيرة ومجافاة الحق، فالحق هو الله، والحق هو اسمه، والحق هو فعله، ولهذا كره المكيون المسلمون، وكرهوا الدعوة، وحاربوها إلى أن انتصر الحق.

* * *

* *

*

([27]) اللكز: الضرب بالجمع في الصدر. وقيل في جميع الجسد. الصحاح للجوهري، باب (ل، ك، ز).

بلال يخبرنا عن توقف الضحك

إن آجلاً أم عاجلاً كان الضحك سيتوقف، أبو سفيان رجل غير كوميـــدي، ولا يميل للضحك بطبعه، سوطه دائمًا عاليًا في الهواء، وهابطا على الأجســـاد، يذيق العبيد مر العذاب، إنه يفكر ويقدر لكل شيء إيقاع الألم والعذاب والرهبـــة في قلوب الناس، وهو يدرك تمامًا ومنذ البداية أن الإسلام ثورة علـــى العبوديـــة على الذل والخضوع للبشر.

إن محمد ﷺ لا يبشر فقط بدين جديد، ولكنه يبشر بتعاليم السماء، وتنظـــيم العلاقات بين الناس، وتحقيق الأمن والسلام، فهو دين الإسلام، إنه يساوي بـــين الجميع، ويؤكد حق الجميع في الثروة والمال، فهو مال الله، ولجميع العباد حـــق فيه لا عن طريق جباية الضرائب، ولكن عن طريق الزكاة.

نعم الإسلام ثورة على رأسمالية المال المحتكر، علـــى العبوديـــة وإذلال البشر، من يعمل ينال نظير عمله، لا يكره فرد على شيء، ولا يستغل فرد آخر، لا أفضلية ولا فضل لشخص على آخر سوى بعمله الذي يجب أن يكون أيضـًـــا عملاً صالحًا، الأمير والغفير الغني والفقير سواسية أمام الله الواحـــد القهـــار، لا يستطيع قوي أن يبطش بضعيف، ولا غني أن يستغل فقير في الإســـلام، الكـــل سواسية وللجميع حقوق واضحة لا تُتَخطى أبدًا.

إذن لابد من تغير هذا الدين والقضاء عليه في مهده، ما ينادي به لا يتحمله الأغنياء والأمراء وأصحاب السطوة والنفوذ، وبالفعل عرض سادة قريش علـــى محمد ﷺ أن يسيدوه عليهم، وأن يملكوه ملكهم، وأن يمنحوه مالهم على أن يترك هذا الدين، ولكنه رفض أن يكون سيدهم أو ملكهم أو أغناهم في مقابل أن يكون مساويًا لأي فرد مسلم، عبدًا كان أم حرًا، غنيًّا كان أو فقيرًا، فهو ليس بملـــك أو مالك، إنه نبي الله، لو وضعوا الشمس في يده والقمر في يده الأخرى ما ســـاووا

شيئًا أمام الرسالة، أما دعوة الإسلام التي تساوي بين الجميع الغني والفقير السيد والعبد، بل قد يكرم الفقير والعبد ويعلو كثيرًا بعمله وإسلامه، وهكذا كنت أنا نفسي بلال بن رباح.

إن الإسلام يحمي الجميع حتى الأطفال، وقبل أن يروا نور الحياة، فمعلوم للجميع أن الطفل وقبل أن تطأ قدماه الأرض من بطن أمه، إذا كان ولدًا فالحياة هنية رغدة ترحب به، وإذا كان فتاة فوالدها يعد لها قبرها بالصحراء، الإسلام يمنع هذا ويساوي بين الجميع في حق الحياة والعمل[٢٨].

الإسلام لا يرى سوى الشخص الفرد، يسميه باسمه لا يهتم بقبيلته ولا كنيتها التي تكنى وتعرف بها، والعرب لا يمكنهم أبدًا تحمل دعوة هذه هي شروطها.

ما أغاظ العرب أيضًا تحديد الإسلام للزواج بالمرآة بأربع، ومن قبل كانت القبائل والرجال يتزوجون على قدر مقدرتهم وثروتهم، بعض الأفراد كانوا متزوجين من عشرة نساء والبعض من عشرين، وكان هذا شائع جدًا بين الأغنياء والملوك، بل وبعض الأنبياء قديمًا كانت القصور تعج بالنساء كل واحدة تنتظر دورها وتسعى لذلك فقد لا يسعفها العمر كله.

الإسلام حدد الحد الأقصى بأربع زوجات، على أن يتم العدل والمساواة فيما بينهم وإلا أبطل حتى هذا التعدد، وكان السبب حتى في هذا مراعاة للعديد من الظروف الخاصة، التي لا يمكن أبدًا مواجهتها سوى بالتعدد، ولا نكون كالغرب المسيحي الذي ينادي بالزوجة الواحدة وآلاف العشيقات.

---

(28) هذه دعوى يدعو لها العالم حتى الآن، المساواة بين الرجل والمرآة، ورغم ما نحن عليه من تقدم ومدنية كما ندعي، فإننا لم نصل بحق إلى ما يدعو إليه الإسلام في هذا الخصوص.

حياة الصحراء والحياة قديمًا كانت تحتاج لعدة زوجات، الكرم، الضيافة، وإعداد الطعام، وتجهيز الخيام، مع صعوبة الحياة وعدم وجود المساعدات كان يتطلب هذا.

ولم يتوقف محمد ﷺ عند حد المساواة بين الرجل المرأة، الزواج بأربع فقط عند العدول وللظروف القاهرة، ولكن راعى إمكانيات المرآة العقلية والبدنية، وخصص لكل عمل يتفق مع قدراته وخصائصه النفسية والعضلية[٢٩].

أن الذين أبغضوا الرسول قديمًا على ما قدمه من تعاليم، هم الذين أحبوه فيما بعد عليها بعد أن تفهموها وعاشوا خيرها تمامًا، مثل الفاكهة تكون مرة جدًا قبل أن تنضج وتصير فيما بعد حلوة مقبولة. إنني أحيانا أتعجب ترى من الذي خلقه الله مساو للآخر زوجتي مساوية لي أم أنا المساوي لها.

لقد كنت أقرأ مؤخرًا كتابًا لهيرودوت وتأخرت كثيرًا، فحضرت لي وأطفأت الشمعة وأنا في منتصف الكتاب، لو لم أكن أحب زوجتي أكثر من هيرودوت لضربتها على رأسها، ولكن ربما تكون قد خدمتني أو منعتني من استكمال القراءة والوصول إلى التعاليم الوثنية، عمومًا وكما قلت في البداية "إن الضحك قد توقف الآن".

* * *

* *

*

---

(29) وأعجب كثيرًا جدًا عندما يدعي البعض تشابه الرجال والنساء في كل شيء، حتى في التكوين الجسدي، ويؤسفني أن يقول ذلك بعض الدكاترة المتخصصين، والحقيقة أنه لا يوجد تشابه مطلقًا، بل هناك أكثر من ٢٥ اختلافًا جوهريًا بين تكوين الذكر والأنثى في الصفات العامة، وهي التي يعتمد عليها كثيرًا في الطب الشرعي.

بلال يخبرنا عن الهجرة للحبشة

في مثل سني المتقدم هذا واقترابي كثيرًا من آخر أيام حياتي، فإنني مازلت أذكر القسوة التي مورِست علي، ومازلت أكره القسوة وألعن ممارسيها، أنا الذي أعرف القسوة تمامًا، فقد مورست عليَّ بكل أنواعها؛ لذا فأنا دائم الصلاة والدعوة لله أن يزيلها من بني البشر، وبالطبع وبكل تأكيد سوف تستمع السـماء وسـوف تستجيب للرجل الذي يعلم تمامًا ماذا تعني صلاته ودعواته فقد عاشها.

إنني أدعو الله أن يضع الشخص الذي يمارس التعذيب والقسوة نفسه مكان الضحية، فهذا وحده هو الذي قد يجعله يشعر بمدى الجرم والعذاب الذي يوقعـه على الغير.

إنني أدعو من الله أن من يفكر في شنق الناس أن يفكر فيما إذا كان هـو الضحية الذي تلتف حول عنقه حبل المشنقة، وأن يشعر القاضي الذي حكم مـاذا لو حكم عليه شخص آخر.

إنني أدعوا المتهمين أو اللذين ينتظرون حكم القاضي عليهم أن يصـبحوا هم القضاة؛ حتى يشعر الآخرون بشعورهم.

أدعوا الذين يستلبون العدل لأنفسهم؛ لأن الحكم والقضاء والقانون معهم أن يتفكروا في عدل السماء، وأن سوء استعمال العدل يغضب السماء ويظهرها بأنها غير عادلة وغير رحيمة.

أدعوا أن يفكر اللذين يعذبون الناس في عملهم أكثر من مـرة، وقبـل أن يمارسوا عملهم البغيض، وأن يعودوا عن فعلهم، وأن ينكروه حتى ولو مارسوه رغمًا عنهم.

هذه هي الدعوات التي كان يدعوها بلال، ويتجه بها إلى ربه طالبًا منه أن يرحم المساكين والضعفاء من سطوة المتسلطين الجبارين، ولكن الإنسان منجذب

بطبعه للقسوة، للظلم، للقتل، فلا يمر يومًا دون حدوث ظلم من الإنسان لأخيه الإنسان، حتى أن السماء كانت تبكي رحمة وشفقة على المظلومين والضعفاء.

لقد كنت أري دموع السماء في عيون الرسول الكريم ﷺ الذي ما كان يطيق ظلمًا، وما كان يقبله، فهو رسول الله ويعلم أن الله حرم الظلم على نفسه، ولكن يبدو أن الإنسان لا يريد للظلم أن يتوقف، فهو يمارس الظلم والعنف والقسوة حتى على المبشرين ورسل الحب والعدل والرحمة، وهكذا عامل البشر الظالمين جميع الرسل ومن اتبعهم ونهج نهجهم ومارس عدلهم ورحمتهم

وكان أول من أوذي من أتباع الرسول في الإسلام امرأة، عندما قام أبو جهل في غضبه وقسوته وجهله بغرس حربته في موضع عفتها - فرجها-، فاستشهدت وصعدت روحها الطاهرة للجنة، إنها سمية أم عمار بن ياسر، أتدرون ماذا كان جرمها؟ إنها رفضت أن تصلي لهبل. آخرون تم حرقهم أو جلدهم حتى الموت، والبعض سب الإسلام كي ينجو بحياته، هذا حدث وهذا حقيقي، ولكن الذي عانى من العذاب والجلد هو الوحيد الذي يمكن تفهم ذلك، فالذي عانى الجلد يغفر للجسد ضعفه، وربما كانت مشيئة الله ورغبته أن لا يستمر هؤلاء في المعاناة، فمنهم من سلم لهم، ومنهم من أسلم الروح كل حسب قدرته، ولكن الله دائمًا غفور رحيم يعلم ما تكن الأنفس، ولا يحاسب إلا على ذلك، فالله لا يكلف نفس إلا قدرها وطاقتها ووسعها.

وكان على الرسول الذي هو من نفس هؤلاء لذلك يشعر بهم ويرحمهم ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٣٠]. كان عليه أن يفعل شيئًا وهو يرى المسلمين يذهبون لحتفهم

---

[30] التوبة: ١٢٨.

واحد إثر الآخر، فقرر إنه يجب على الضعفاء اللذين ليست لديهم عزوة أو قبيلة أو أسرة تحميهم أن يفروا بدينهم، وأن يتركوا هذه البلدة ويهاجروا منها.

أنا مثلاً العبد الأسود بقيت؛ لأنني في حمى أبو بكر، وفي ليلة مظلمة قــام جعفر[٣١] الشقيق الأكبر لعلي بن أبي طالب هو وعشرة من الرجال وثلاث نساء بالانسلال للصحراء، كانت وجهتهم الحبشة بلدي وموطني الذي لم أعرفه قــط، ومخروا عباب البحر الأحمر إلى حيث يحكم حاكم مسيحي اشتهر عنــه العــدل والرحمة "النجاشي" ملك الحبشة.

وبالطبع لم يجتازوا الصحراء من الطرق المعروفة والمألوفة، ولكنهم التفوا حول الفياض والجبال في طرق وعرة عسره حذر الموت والمطاردة، اعتمــدوا على الله للنجاة من موت أكيد، والسير صوب موت مظنــون، وكــانوا يــرون مطارديهم يسيرون بحزاهم تمامًا، ولكن لا يرونهم لا يسمعونهم لا يشمون رائحة طعامهم، إذا أردت أن تعتبر ذلك معجزة فهي معجزة، ولكنني أعتقد أن جعفــر كان على علم بكيفية السير في دروب الصحراء واستخدامها لصالحه، إنه خبيــر بانعكاس ضوء الشمس في العيون، بحيث تجعلها لا ترى شيئًا، وظــلال الــتلال الرملية التي تجعلك ترى أشياء كثيرة غير موجودة، فإذا كانت هنــاك معجــزة بالفعل، فهي جعفر نفسه، فهو رجل يستطيع إن يخفي نفسه في ظل نفسه، وهــذه بدون شك موهبة ونعمة وهبها الله له.

وعندما شاهدنا فرسان أبو سفيان يعودون إلى مكة خاوين اليــدين، لــيس معهم من شيء سوى عيونهم التي ألهبتها أشعة الشمس وأصابتها القروح، هنــا قررنا وضع خطة لاستمرار الهجرة والفرار من بطش الكفار، وفعــلا أرســلنا حوالي ثلاث وثمانون منا رجالاً ونساءً عبروا الصحراء وخاضوا البحر الأحمر في طريقهم للحبشة.

---

[31] هو جعفر بن أبي طالب، والذي لقب بالشهيد الطائر.

ولكن وحتى في الحبشة لم نكن آمنين على أتباعنا، ففي الـوطن أصـبح صوت أبو سفيان أكثر نعومة وأقل نغمة وشدة، وهـذا يعنـي شـدة الخطـورة والاستعداد لبطش كبير في هذه الفترة، كانوا يقولون: عندما تتحدث مع أبو سفيان عليك بأن تنحني كثيرًا عليه حتى تسمع صوت كلماته الهادئة الناعمة. ولكنك أن فعلت ذلك فسوف تسمع كل شيء بوضوح أنه يتكلم بلا صوت، وكأنه يكلم نفسه أو يتحدث مع شيطانه، إنه يعد لضرر وخطر شديد، لقد أصيبت كرامته بضـرر شديد، وأصبحت قوته وسيادته محل شك وسؤال، إن مكة لا يمكن أبدًا أن تسمح بهروب ثلاثة وثمانون رغمًا عنها، إنه عمل سيء للسمعة والكرامة، وأهم مـن ذلك التجارة أنه لو فشل في تعقبهم في الصحراء أو على سطح البحر الأحمر فقد يذهبوا لحماية الملك الذي يلقب نفسه بأسد يهوذا.

لهذا اعدوا بعثة دبلوماسية بقيادة وتحت إمارة عمرو بن العاص وأرسـلوه للحبشة لأسد يهوذا، مسلحًا بالعديد من الهدايا والاعتذار وخطاب صداقه وود.

عمرو بن العاص الداهية شديد الذكاء، الذي يملك كل شيء عند أطـراف أصابعه، ولكن شكرا لله لقد كان ذكاؤه أكثر من اللازم، وأكثر مما يسمح لـه أن ينجح في هذه المهمة، فمعنى أن يعود وقد سلسل ثلاثة وثمانون شخصًا بالسلاسل أنه يحكم على روحه أن تقيد للأبد في نيران جحيم جهنم، وكما أقول لكـم لقـد وهب الله عمرو نعمة الفشل في تلك المهمة، لقد رحمه الله بأن جعله يفشل فـي مهمته تلك.

لقد استدعى أسد الحبشة المسلمين أمامه، وسألهم ما الذي يجعله يرسـلهم مقيد بالسلاسل ثانية إلى وطنهم، لماذا لا يعودوا إلى مكة ووقف جعفر المسـكين غير قادر على نطق كلمتين اثنين، مثلما كان غير قادرًا على الوقوف على قدميه الاثنين.

ووقف عمرو بن العاص منتصب القامة في عزة وفخر وثقة، إنــه يعلــم بقدرته على النجاح في أي مهمة، إنه لا يدخل في مجادلة أو نقاش أو مساجلة إلا وخرج منتصرًا مزهوًا بذكائه وسعة حيلته وعميق فطنته.

فقد اتهم جعفر بالتحريض على الفتنة، وأنه يستخدم ادعاء النبــوة كحجــة وذريعة لهدم وتفرقه وتمزيق المجتمع، إن الإسلام الذي يدعونه كذبة، وبــالطبع كان عمرو بن العاص وقتها كافرًا كقطعة من الحجر، ولكن وحتــى فــي ذلــك الوقت الذي كان يعرف فيه القليل عن الدين، والكثير.. والكثير جدًا عن المكــر والخداع، تمكن بعد عدة دقائق أن يجعل بلاط الإمبراطور كله يضج بالضــحك والسخرية من المسلمين، وبدأت أصوات السلاسل التي يعدونها لتقيد المســلمين تعلو وتسمع.

ولكن الله العلي القادر القدير الذي يمنح الإنسان موهبة الذكاء وقوة وحــدة العقل يمنحه أيضًا الغباء، وأحيانًا يخلط ما بين الاثنين، إنه قادر ولا معقب على مشيئته وفعله، وهذا هو عين ما حدث لعمرو بن العاص، فقد خسر عندما كسب أو بمعنى أدق وأوضح كسب عندما خسر، فهذا هو ما سجله التاريخ لنا وللبشرية جمعاء، فهذا هو الذي حدث تكلم جعفر عن السيد المسيح، والذي نطلق عليه نحن المسلمون عيسى بن مريم نبي من أنبياء الله، الذي يجب أن نؤمن به مثلما نؤمن بجميع الأنبياء والرسل، فهذه هي رسالة الإسلام وعقيدة المسلمين، ولكن الســيد المسيح أحبه قومه لدرجة أنهم جعلوه إلهًا ونبيًا، حتى في الحبشة لقد أحبوا عيسى لدرجة أن مجرد ذكر اسمه جعلت عينا الملك المسيحي تفيضان بالدمع.

هنا وقف عمرو بن العاص وقد عقد ساعديه على صدره وفتح مــا بــين ساقيه، وقفة المعتز بنفسه المتأكد من فوزه، وتكلم معتقدًا أن كلماته هذه ســوف تنهي كل نقاش، فقال: إنهم يكذبون بشأن عيسى فهم يقولون أن عيســى الــذي تعبدونه ليس سوى مجرد نبي وليس ابن الله، وهم يدعون إنكم تعبــدون ثلاثــة

آلهة: أحدهم الأب، والثاني الابن، والثالث الروح القدس. وهم كــذلك ينكــرون خلوده وأنه رجل مات. رأيت مدى الفهم العميق للديانات من هذا الــوثني غيــر المؤمن؟ لقد عرض مفاهيم الإسلام للمسيحية في عرض يجعله يتعارض تمامًــا معها، ومع ما يفهمه أتباعها عن سيدهم وربهم.

هنا استدار الملك لجعفر وقال له: أخبرني بماذا يقول ديــنكم عــن مولــد المسيح، أقصد المولد الدنيوي. ثم مسح بظهر يده على فمه، وأشار للســجان أن يتقدم للأمام، وهنا قطع جعفر الطريق عليه وقال: سوف أتلوا عليك مــا يقولــه القرآن عن ميلاد المسيح:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَــا مَكَاناً شَرْقِياً (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِياً (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِياً (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِياً (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِياً (٢٠) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّــا وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِياً (٢١) فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِياً (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِياً (٢٣) فَنَادَاهَــا مِــن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِياً (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِــذْعِ النَّخْلَــةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِياً (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِياً (٢٦) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِياً (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا

كَانَتْ أُمُّكِ بَغِياً (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِياً (٢٩)
قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِياً (٣٠) ﴾[32].

كانت صيحة جعفر صيحة يأس على أفضل الاحتمالات، جعلت الملك يرفع رأسه وينظر إليه مليًا، وأخيرًا وجد جعفر صوته وكان يجب عليه ذلك. إلا.... أمله الوحيد كان أن يتكلم أن يقول شيئًا وهو يسمع لأصوات السلاسل وحركات السجانين، وتقطب جبين الملك، يجب أن يتكلم، وهو يرى الأسود الأربعة المحيطة بعرش الملك تزأر في وحشية، وتكلم جعفر ورتل سورة مريم ويشعر الجميع بأن تلك الكلمات هي فعلاً كلمات الله، وليست كلمات أب الله، وذرف جميع الحاضرين الدمع الغزير وهم يستمعون لهذه الكلمات تنطلق في إيمان وخشوع كبير من فم جعفر، وقام الملك أسد الحبشة تاركًا عرشه ومحتضنًا جعفر بدلاً من لفه بالسلاسل، لفّ يديه حوله محتضنه قائلا: لن أعطيكم إياهم حتى ولو جئتموني بجبال من الذهب، لن أسلمهم لكم مقابل أي شيء. ثم اختط خطا على الأرض ليظهر للجميع المساحة الضيقة بين المسيحية والإسلام إنها بسمك هذا الخط.

ووقف عمرو بن العاص وقد ظهرت على ملامح وجهه الذكي أنه أدرك أنه قد فشل تمامًا، وأن السهم الذي أطلقه طاش ولم يصب هدفه كالمعتاد.

هذه هي الحبشة أرض الأسود والعدل، أما في مكة فهي مدينة القوافل والمعاملات التجارية، إنه الحرير والعطور والتوابل هي التي توزن في الميزان وليس العدل، إن الكلمات مازالت غير مرئية، إن آذانهم سمعتها، ولكن قلوبهم لم تعيها فهي مازالت عمياء.

([32]) مريم: ١٦- ٣٠.

وبدأ عهد جديد من الاضطهاد والظلم، كان الجلد يتم بـــدم بـــارد، وعقــل غائب، وقلب جاحد حاقد، وبدأ الظلم العام ضد الإســـلام، بــل ضـــد الجميـــع، فاستخدموا سلاح المقاطعة والحظر، حظر التعامل معهم، فقد تم مقاطعه قبيلة بني هاشم كلها، قبيلة الرسول ﷺ، فلا يتعامل ولا يتاجر ولا يتزوج أحد مـــنهم، بـــل حتى ولا يستضيفونهم أو يجيرونهم، ممنوع تقديم قطعة سكر أو حبات ملح لأحد منهم، بل وصل الأمر منعهم من الاستظلال بالظل، وهذا كله على خلاف عادات وطبيعة وتقاليد العرب.

وأخيرًا نفوهم وطردوهم إلى الصحراء بأقل القليل الذي يمكـــنهم حملـــه، سواء آمنوا برسالة محمد أم لا، سواء أحبوه أم، لا لقد اضطهدوا الجميـــع مثلـــه تمامًا كان يكفي أن تكون أحد أفراد أسرته أو عائلة كي تطرد إلى الصحراء، مثل شخص أصيب بوباء معدي، كانت هذه هي آخر أفكار أبو ســفيان، أن يرســـل الإسلام للصحراء كي يموت هناك وحيدًا تحت قيظ الشمس.

ولقد عانينا الجوع والعطش في الصحراء لمدة ثلاث سنوات، كان الأطفال يموتون في الصباح من قيظ الشمس، والشيوخ في المساء من زمهرير البرد، في كل جهة نتجه إليها تواجهنا المصائب والصعاب، ورفعنا أعيننا للسماء، ولكن لم يتساقط علينا المن والسلوى مثلما حدث لموسى، وبقينا على حالنا لا نيأس أبـــدًا، اعتمادًا على أن الصعاب التي لا تقتل تقوي، وربما كانت هذه هدية من الســـماء أفضل لنا من المن والسلوى.

* * *

* *

*

بلال يخبرنا عن تحول العماليق والمردة وهدايتهم

على الرغم من أننا لم نكن نعرف الأخبار بينما كنا في الصحراء تتساقط على رؤوسنا المصائب، جاءت البشرى إلينا تفرح قلوبنا، فقد اهتدى للإسلام كل من حمزة وعمر كيف حدث هذا؟ إنهما من أشد أعداء الإسلام وأكثرهم عنفًا ودموية على أصحابه.

بدأ الطريق حمزة عم محمد ﷺ، ذلك الرجل الضخم المشهور باسم أسد الصحراء؛ لأنه خير من يصطاد الأسود وخير وأشجع المحاربين في المعارك، لا يوجد سيفًا أمضى ولا أقطع من سيفه، بل ولا أثقل منه أيضًا، لا يوجد أسرع ولا أدق من رمحه، إنه يتجه إلى هدفه كطرفة العين، الجميع يتحدثون عن مهاراته في الصيد، خفته ورشاقته وسرعته تفوق كثيرًا سرعة الفهد، عيناه أدق وأمضى من عيني الصقر، بل يشم رائحة الفريسة قبل أن تشمه هي، وينقض عليها قبل أن تفكر في التحرك من مكانها، ولكن ويا للعجب على كل هذه القوة والشجاعة كان يتميز بما هو أقوى الرقة والشاعرية، الحب والحلاوة.

حمزة كان يلف ويدور بفرسه حول زهرة باسقة يتأمل فيها تستوقفه تسعده، لا يمر عليها أبدًا متجاهلاً، أو يطأها تحت حوافر فرسه، بل يظل يدور حولها متأملاً لها من كافة الزوايا، وكأنه يعجب من عظمة خلق الله، أكثر من هذا كان قلبه وفؤاده مرهفًا للشعر يقرضه خاصة في الحب والفخر والتشبيب، كان الصورة التي يعجب بها ويتعجب بها العرب العروبة والفروسية والنخوة كانت تناسبه تمامًا.

ولكن كل هذه الشاعرية والفروسية والصفات الجمالية تلاشت تمامًا، وظهر بدلاً منها العصبية العربية والنفس الآبية والحمية القبلية عندما كان يمتطي جواده في مكة وسمع أبو جهل يقول: إن محمد ﷺ كاذب ومخادع. كان حمزة يجر أسد

قد اصطاده وربطه يسحبه خلف حصانه، ويبدو أن هذا المشهد لم يكن كافيًا كي يمنع أبو جهل لسانه عن محمد ﷺ، فقد أعاد كلماته ثانية، وكان هذا بالفعل جهل شديد منه؛ فقد اندفع حمزة بفرسه وهو يحمل في يده اليسرى قوسه مخترقًا جموع المجتمعين، وكأنما ليس هناك جموع ولا شيء سوى أصوات حوافر جواده، ثم صوت اللطمة الشديدة التي لطمها له بظهر قوسه، بحيث جعلت أبي جهل يلف على الأرض حول نفسه والدماء تغمر وجهه كله.

حمزة ذلك الفارس الشاعر كان يكره المجادلة، هبط من على متين فرسه وهو يقول مخاطبًا الجميع وهم ينظرون لأبي جهل وهو يرتجف ألمًا وخوفًا وهلعًا على الأرض، يخشى حتى مجرد محاولة النهوض؛ كي لا يناله أذى أكثر من حمزة الثائر.

قال حمزة: نعم عندما أكون في الصحراء وحيدًا لاصطياد الأسود، أعلم تمامًا – وأشار بقوسه باتجاه الكعبة – أن إلهكم مازال سجينًا داخل الكعبة بلا حول ولا قوة، ولا يستطيع أن يفيدني بشيء. ثم غرس قوسه بقوة في الأرض وصاح: إن دين ابن أخي هو ديني، وإن الإله الذي يعبده ابن أخي هو إلهي من يريد شيئًا فعليه أن يقوله. ووقف منتظرًا، تفرق الجميع من أمامه فيما عدا أبا جهل المطروح أرضًا في دمه، وذهب حمزة يبحث عن محمد ﷺ.

ومضى وقت قصير لنجد رجلاً آخر يتطاير الشر من عينيه، ويحمل في يده سيفًا، إنه يتجه للقتل، إنه يبحث عن محمد ﷺ، إنه سوف ينهي هذه الدعوة، سوف ينهي الإسلام بضربات سيفه، إنه عمر بن الخطاب ﷺ كان فارع الطول حتى ليقولون أنه ممتد، ويقولون أيضًا أنه كان يقفز ليعتلي جمله، كان يتعيش من بيع التوابل، الصخور عبر الحدود للبيزنطيين، كان سلوكه وطبعه سيئًا كسلوك جمله.

ودعا الرسول أن يُعز الإسلام بأن يؤمن عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام، وكان الرسول يصلي وقتها في منزل الأرقم بن أبي الأرقم، ليس معه سلاح، وليس معه حرسًا عندما هرول عمر إليه غاضبًا ثائرًا، وجريت إلى حيث كان الرسول محاولاً أن أهدأ من روعة، وأن أحذره، لم يكن خائفا مثلما كنت، بل كان في هدوءه وسكينته وقال: "**سوف يحدد الله الوقت الذي سيأتيني فيه عمر بن الخطاب**".

كنت أستطيع رؤية عمر بن الخطاب من نافذة المنزل وهو قادمًا شاهرًا السيف في يده، كان حجمه وطوله مخيفًا بالنسبة للمنزل الصغير، ووجدتني أقول: لقد اختار الله. لأن عمر هنا الآن.

وتلفت حولي علني أجد سلاحًا، ولكنني لم أجد أي سلاح بالمرة فيما عدا قدر به ماء يغلي فوق النار، حملت القدر وتسللت حذرًا باتجاه الباب، وهنا وقف الرسول ﷺ في محاولة لمنعني أكثر منه لمساعدتي، وقال ﷺ: "**شكرا يا بلال**". وتناول من يدي القدر "**إذا كان هذا هو الوقت الذي قدره الله لموتى، فلن يمنعني ذلك الماء المغلي**". هذا ما اعتقد إنه قال لي فذاكرتي لا تعي ذلك بالضبط، خاصة وأننا في هذه الأيام عندما نقول كلامًا من المؤكد أن الرسول ﷺ قاله، فإنه يصبح عبادة يُتَدَيَّن بها (سُنه).

وعندما أصبح عمر على بعد بضع خطوات من باب المنزل، اقترب من شيخ عجوز أعتقد أنه شحاذ واعترض طريقه، ومعروف عن عمر أنه شديد الكرم والجود ومساعدة المحتاجين، إلا أنه في مثل هذا الظرف والوقت غير المناسب احترم غضبه، فحمل الشحاذ من تلابيبه وضرب به الحائط صارخًا: وبحق جميع موتاي لسوف أقتلها. ما هذا أنه يستخدم لفظ المؤنث بدل المذكر، ثم عاد عمر من حيث أتى وكأن جميع شياطين الكون تطارده.

كنت أعلم يقنًا أن اليوم لم ينتهي بعد، فعمر ليس بالشخص الـذي يتـرك عملاً لم ينجزه، حتى ولو كان هذا العمل هو قتل نبي، فإنه لا يترك العمل نصف منجز؛ لهذا انتظرت بجوار النافذة متظاهرًا بأداء شيء، وجاء الأرقم، على الأقل أصبح متواجد الآن ثلاثة منا، ولكن لزيادة الاطمئنان وضعت قدر المـاء علـى النار ليغلى ثانية، وحاولت أن اذهب كي أحضر حمزة، ولكنه كان هنـاك فـي الصحراء كعادته لصيد الأسود، لقد كنا على معتقد أننا في حالة حصار.

بعد حوالي ساعة شاهدت عمر بن الخطاب ﷺ يعود ثانية وهـو مـازال شاهرًا سيفه في يده، وبدون أي تعليمات أو توجيهات قفلت (أغلقت) الباب وثبته بالترباس، وجاء رسول الله ﷺ من ورائي وقال: **"لماذا أغلقـت البـاب ولمـاذا توصده بالترباس؟"**

قلت له: كي أنقذك يا رسول الله من القتل.

فنظر إلي بعينيه الهادئتين. وقال: **"إن النبي لا يجب أن يغلق بابه يا بلال افتح الباب إذا كنت تخشى الله"**. ووقف محمد ﷺ في وسـط الحجـرة منتظـرًا وسمعت صوت مقبض سيف عمر وهو يطرق الباب، ولكـن النبـوة يجـب أن تتحقق وكما أُمِرت ذهبت لأفتح الباب.

ودخل عمر بن الخطاب والذي شاهدته ساعتها لن أنساه أبدًا كيـف؟ إنـه شيء لا يصدق، نظر عمر إلى الرسول ﷺ ثم إلي ثم إلى الأرقم ثم نظـر إلـى أسفل إلى سيفه، كانت هناك مشاعر وعواطف تتقاذفه وتؤلمه وتغير وجهه، وفتح رداءه وكأنه يقدم قلبه للرسول، فصحت بصوت عال: الله اكبر، لا إله إلا الله، لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.

وفي هذه اللحظة وكما كانوا يقصون علينا كيف أن بولس الرسول حـاول قتل المسيح فآمن به، واتبعه وأخلص في رسالته، حدث نفس الشيء تحول عمر،

نعم تمت إرادة الله، وأصبح كل من الرجلين اللذان حاولا قتل نبي الله هما من أشد الأتباع والمدافعين عنه.

لقد تحولت البداية السيئة إلى نهاية رائعة هذا ما شاهدته بعيني بالفعل، ولكن المعجزة لم أشاهد معجزة تمت في ساعة ما بين حضور عمر في المرة الأولى والثانية، ولكن ما سأقصه رواه لي – خباب – الحداد، الذي كان هناك، وهو رجل مستقيم وصادق مثل الصلب الذي يتعامل معه.

إن الرجل الذي أوقف عمر عند الباب لم يكن شحاذًا كما اعتقدت أنا، ولكن تاجرًا، البعض يقولون تاجر خمور الذي سأله لماذا أنت شاهر سيفك؟

فقال عمر: كي أقتل أحد المخادعين الذي يدعي أنه نبي الله.

إذن يستحسن أن تذهب إلي أختك فتقتلها أولاً.

نزلت كلمات التاجر العجوز علي عمر فجعلت غيظه وحنقه وغضبه يشتعلان أكثر فأكثر، فعمر بن الخطاب يحب شقيقته ويحترمها، والعجوز تاجر الخمر يشير بكلماته من طرف خفي إلى شيء.

طار عقل عمر مثلما طار هو متجهًا إلى منزل شقيقته، وهناك سمع صوتًا، اختلع الباب ودخل رافعًا سيفه فوق رأسه، فشاهد شقيقته فاطمة وزوجها سعيد، وشاهده خباب، وحاولت فاطمة بسرعة أن تخفي قطعة من الورق (اللخاف) [٣٣] في جلبابها، وهنا لطمها عمر بشدة على وجهها فأسال دمها، وأخذ الورق عنوة منها ليقرأ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى (٣) تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ والسَّمَوَاتِ الْعُلَى (٤) الرَّحْمَنُ

([33]) كان العرب يكتبون على لخاف الشجر (الاوراق، الجذوع العريضة) وقطع الجلد و العظم العريض، حيث سجلوا القرآن على صفحاتهم بعد أن وعته قلوبهم.

عَلَى العَرْشِ استَوَى (٥) لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ ومَا فِي الأَرْضِ ومَا بَيْنَهُمَا ومَا تَحْـتَ الثَّرَى (٦) وإن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وأَخْفَى (٧) اللَّهُ لا إِلَـهَ إلاَّ هُـوَ لَـهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى﴾[٣٤].

وتسمر عمر في مكانه بينما عيناه تتنقل بين الكلمات يستعيدها، والنظر إلى شقيقته المحتمية خلف زوجها والدم ينزف من وجهها، ثم أخذ يصرخ في حـده وآلم، إذا كان ما هو مسطر في تلك الورق يساوي كل هذا العنف و الألم، مـاذا فعلت بي؟

ولكن فاطمة التي كانت غارقة في دمها الذي ينزف من وجهها، كانت في حالة من الخوف والرعب، تمنعها من القدرة على الكلام أو الإجابة على تساؤله، ورفع عمر الورقة وقربها من وجهها كآخر وسيلة للاعتذار، وقـال: "اقرائيهـا علي، اقرائيها، هل تساوي كل هذا اقرئي".

ولكن يد وأصابع فاطمة ما كانت تقوى حتى على حمل الورقة، وهنا تقدم خباب الذي كان يطوع الحديد الصلب ويشكله بأشكال الطيور، أخذ الورقة من يده وقرأها، واستمع عمر بعمق ودهشة، وأصبح وكأنما أصيب بحالة من السحر.

أخذ يحملق في شفتي خباب وهو يقرأ، ثم ينظر للورقة مسحورًا منجـذبًا، إنه يستمع لكلمات – الله –، وجد نفسه يقول لنفسه في سره: يا الله.. إنـه كـلام الله.... ما أطيبه، وما أعذبه، وما أحلاه.

هذا ما أخبرني به عمر بنفسه فيما بعد، فجأة شعرت بحـلاوة، بهـدوء، بسكينة تملؤني كلي، ثم برعشة وقشعريرة شديدة، وكأن زلـزالاً انطلـق فجـأة بداخله، يهز كيانه كله هزًا، تصبب العرق الشديد من جميع أنحاء جسده. هذا هو ما قاله لي عمر عن هذا اليوم وتلك اللحظة "لحظة أن منّ الله عليه بالإسلام".

([34]) طه: ١– ٨.

بلال يخبرنا عن عام الحزن

لقد سمي عام الحزن، ففي هذا العالم خذلنا كل شيء، ونزلت عليَّ، ونزلت على رؤوسنا المصائب مجمعة، حتى إيماننا أصابه الوهن والحيرة والقلق والألم، ونظرنا وتطلعنا بأعيننا وأنظارنا للسماء ترى ما الذي فعلناه؟ ماذا.. هل عصينا الله؟ ماذا حدث؟

نحن وعلى مدى ست سنوات عددنا في تزايد صحيح في بطء شديد، ولكنه في تزايد لقد أصبح عددنا بالمئات، ولكن المئات ليست بالعدد بالنسبة للعالم وتعداده، ولكنني هاأنذا أتكئ على عصاي في دمشق لأرى ملايين المسلمين، بعد أن كانوا منذ ثلاثين سنة فقط لا يزيدوا على عشرة.

لقد كنا نحن المسلمون جمعيًا نتجمع ونتحلق حول شمعة، ولكن الآن وبمشية الله أصبح الفرد الواحد منا يتضاعف عدده ليصبح مليونًا، إنني سعيدًا جدًا جدًا، إنني مازلت فوق سطح الأرض، ففي عام الحزن لم تكن لي أمنية سوى أن أكون تحت سطح الأرض (سطحها).

أولاً توفيت السيدة خديجة، التي ظلت وعلى مدار ٢٤ سنة الزوجة الوحيدة، وقد ماتت بمكة قبل الهجرة بثلاث سنوات في شهر رمضان، وكان عمرها خمس وستون سنة، ودفنت بالحجون، ونزل الرسول حفرتها ولم تكن الصلاة قد فرضت.

وقد توفيت رضي الله عنها بعد موت أبي طالب بثلاثة أيام، فكانت وفاتها مصيبة كبيرة تبعتها مصائب كبيرة، تحملها النبي ﷺ بجأش صبر على المكاره، وكانت خديجة أول آمن بالرسول ﷺ، ولقد نشر الإسلام بأموال خديجة، إنها أول

أمهات المسلمين، وقد مات أبو طالب السند والساعد القوي للرسول رغم عدم إيمانه، ولعل ذلك منحه فرصة كبيرة جدًا لمساعدته.

واعتقد أنه سوف يجزي خير الجزاء عما فعله للرسول، وأتمنى يوم البعث أن أكون بقرب الله مثلما سيكون أبو طالب، فعندما حضرت أبي طالب الوفاة، جمع سادة قريش على إحدي جوانب مضجعه (سريره) والرسول ﷺ على الجانب الآخر، وطلب منهما أن يقسما على المعايشة السلمية فيما بينهما، ولكن الرسول محمد ﷺ لم يكن مكلفًا بأن يعقد صلحًا أو تعاهدًا مع الكفار بأن يمارسوا كفرهم.

فهو لم يطلب منهم سوى شيئًا واحد فقط أن يعبدوا الله الواحد الأحد، وكلما طلب منهم ذلك وضعوا أصابعهم في آذانهم؛ كي لا يستمعوا للقول الحق، ومات أبو طالب وهم ملتفون حوله مات آسفًا، وهو يعلم أنهم على غير حق، ووجدها أبو لهب فرصة ليثرثر ويعلو صوته مثنيًا على اللات والعزى ومناة، وكأنهم زوجاته الأثيرات، يسألهن كل صباح عن حالة الوضع وصحتهم، إنه سعيد يلقي بنفسه لأحضان الجحيم من أجل حجارة شكلوها بأيديهم، أخذ يصيح وقد انتفخ وجهه وجحظت عيناه واحمرت، وكأن نيران الجحيم قد اشتعلت بالفعل به، حتى وهو مازال حيًا، فقد نزل به حكم الله وهو أعدل وأصدق الحاكمين، فمكانه جهنم وبئس المصير هو وزوجته:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥)﴾[٣٥].

لقد حق القول عليه وسبحان الله العظيم ما استطاع حتى ادعاء أن يجعل لكلمات الله تبديلاً حاشا لله، وأرجو المغفرة، فقد ظل على ما هو عليه منتظرًا

([35]) المسد: ١– ٥.

مقعده من النار هو وزوجته، التي هي في مثل سوءه، إنني مازلت أذكرها وأذكر كيف كنت أخافها، فقد اعتادت على التواجد يوميًّا لمشاهدة العبيد وهم تحت نير التعذيب، وكيف كانت تجهد نفسها في جمع الحطب من كل مكان، ثم تضعه أمام منزل الرسول وتشعل فيها النيران، وصدق الله ﴿الخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ والْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ والطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ والطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾[٣٦].

وزاد أبو لهب ومن هم على شاكلته في إيقاع الأذى بالرسول وأصحابه بعد موت أبو طالب.

وتحول الرسول إلى الطائف تلك البلدة المشهورة بشجرها وعنبها وثمارها وطيب جوها، عله يجد بين أهلها من يستمع لقوله ويلبي دعوته. وتوجه الرسول لم يحمل معه شيئاً، فلم يكن يملك سوى جلبابه ونعليه، ولا شيء غير ذلك حتى ولا وشاح يلفه حول رأسه يمنع الغبار والرمال عن وجهه، ولكنني والله شهيد على ما أقول ما شاهدت أجمل منه هيئة، ولا أنظف ثوبًا ولا أعز نفسًا، ذهب مصطحبًا معه سعيد ابنه بالتبني، ولقد حاولنا أن نتبعه ولكنه طلب منا العودة.

فلم يكن يريد حاشية أو بطانة، ولكننا كنا نخشى عليه من الرحيل في الصحراء، حيث لا تجد سوى الشمس المحرقة والرمال اللاذعة والوحوش الضارية والعدو يتبعك ونفسك تتعبك، ولكن الرسول ما كان بالذي يلقى بالاً لأي شيء في سبيل الدعوة وإعلاء كلمة الله.

ولكن تحقيق ما توقعناه فقد عاد بعد أسبوعين اثنين مسخنًا بالجراح التي لم تلتئم بعد من رحلته في الصحراء، وبعد أن يأس من سكان الطائف، وما ناله على أيديهم، عاد ثانية واتجه مباشرة إلى حيث كان منزل زوجته الراحلة خديجة، حيث يشعر دائمًا بالراحة.

([36]) النور: ٢٦.

ويقص علينا سعيد ما حدث فيقول: لقد وصل بأمـان الله إلـى الطـائف، ورتب للقاء مع شيوخها الذين جلسوا يحتسون الخمر والفاكهة، طلب أن يتحـدث معهم، وأن يعرض عليهم الدين الجديد، نظروا إليه من فوق حافة كؤوس الخمر التي بأيدهم، تحدثوا معه بمنطقهم الذي يعرفونه.

فالطائف كانت مشهورة بكرمها (بعنبها) ونبيذها البارد قالوا: إذا كنت أنت رسول الله، فلا بد أن تكون ملاكًا، ذلك الذي غير مسموح لنا أن نتحدث معـه، وإذا لم تكن رسول الله فأنت محتال، وفي كلتا الحالتين غير مسموح لنا بالحديث معك. وقاموا يصرخون في وجهه ويشجعون الأطفال على أن يرجمونه بالحجارة ويهللون عليه، ويصفونه بأسوء الصفات، وظل الأطفـال والكبـار يرجمونـه بالحجارة؛ كي يعود ثانية من حيث أتى، وعبر الصحراء، عبر رحلة المعانـاة، ويقول الرسول ﷺ: إن هذا اليوم كان أسوء يوم مر به في حياته.

الشخص الوحيد الذي أظهر الشفقة عليه عبد مسيحي يدعى عماس، والذي كان يعمل بأحد الحقول أخذته الشفقة به، وقدم له بعض عناقيد العنب، ولا أدري تصاريف القدر وكيف تشكل حياتنا؟ فمثل هذا العبد ربما اختصر الطريق كثيـرًا للجنة بمثل عمله هذا، وقد لا يكون اللهم إنني بقيت وحتى لحظة قولي هذا محبًا لهذا العبد عماس، حقيقة أنا لم أشاهده ولم أتحدث معه، ولكنني أحببته كثيرًا وهو يستحق ذلك.

* * *

* *

*

بلال يخبرنا كيف أخذ النبي المدينة

يقولون أنه في إحدى الليالي غابت النجوم تمامًا عن سماء الطائف، وأن نجوم الثرايا (ستة نجوم مجمعة مع بعضها) بكت، بل وسمع صوتها، وهذا بالطبع هراء، فقد راقبت السماء في هذا اليوم، ولم ألاحظ شيئًا كهذا.

ولكن في إحدى الليالي حضر اثنى عشرة رجلاً من المدينة في ليلة مقمرة؛ ليعرضوا على الرسول ﷺ مدينتهم، يقدموها له لم أكن أعرف أيا منهم، ولم أشاهد أحدهم من قبل، ولم يكن حضورهم متوقعًا، ولكن كانت لديهم أسباب وجيه للحضور، فهم يريدون محمد ﷺ كرسول وكصانع للسلام، فالمدينة كانت تحكمها قبيلتي الأوس والخزرج، واللتان كانتا في صراع وحروب مستمرة لم تهدأ أبدًا.

وكانت الحرب بالطبع لتحديد من الذي يحق له السيطرة والحكم، وكان في قلب كل فرد من الأوس جرح عميق نحو كل فرد من الخزرج، وكذا الوضع تمامًا في الجانب الآخر، وسمعوا جميعهم أن هناك رسول ونبي يبشر بالحب والسلام والمساواة والمآخاة بين الناس، وعليه حضر الرجال من أجل ذلك، ولقد توفي والد الرسول وبعده والدته بستة سنوات، ودفنوا في تراب المدينة حيث اختلطت رفاتهم بتربتها وبأرضها.

جلس الرسول يستمع إليهم قالوا له أنهم سمعوا بسوء الاستقبال الذي استقبل به أهل الطائف الرسول ﷺ، إنهم يعرضون عليه الآن ما سبق، وإن حاول أن يعرضه عليهم من ضرورة الإسلام بالله الواحد القهار، ويتم التفاهم، وفهم كل منهما الآخر، إلا أن النبي طلب منهم العودة للمدينة والتبشير بالإسلام أولاً، وحين رجوعهم لمكة ثانية يقيم الأمر، ثم ينظر في أمرهم، وأرسل معهم مصعب ليفقههم في الدين، وبعدها يعودوا بعد عام، فإذا ظلوا على إيمانهم يكون له معهم شأن آخر.

وكنا جميعًا على أحر من الجمر لمعرفة ما تئول إليه التجربة، هل ستنجح أم ترى أننا في حلم؟ فقد كانت المشاهد التي نراها أمامنا صعبة ومؤسفة جدًا.

أبو لهب لا يؤمن سوى بسوطه، فهو القادر فقط على إثبات وجود قوة آلهته، وعشنا محبوسين في منازلنا التي أصبحت بمثابة السجن، ووهن إيمان البعض، وانتقدوا المبعوثين الذين أرسلهم للمدينة، وشككوا في الرجال الاثنى عشرة الذين حضروا من المدينة ليلاً، وعلى ضوء القمر كما لو كانوا ملائكة وليسوا اثنى عشر رجلاً عربيًا.

ولكن الرسول محمد ﷺ الذي يعرف تمامًا نوعية رجاله في الرخاء والشدائد، هؤلاء الرجال الذين بعثهم للمدينة سوف يمرون بنجاح في أي اختبارات، وسوف يجتازونها جميعًا.

وعاد الرجال في اليوم وفي المكان وفي الساعة المحددة، تمامًا مثلما قال مصعب، وتم الاجتماع في العقبة لم يكونوا اثنى عشرة رجلاً، ولكن سبعة وسبعون أي تقريبًا مثل عددنا نحن في مكة، وعندما شاهدت هذا العدد الكبير اعتقدت أنها مصيدة أو خدعة، فقد كانت أعصابنا في تلك الأيام متوترة للغاية، ولكنني سمعت أصوات صادرة من غوايش، فعلمت أن معهم نساء، وهذا طمأنني مرتين أنه لا خطورة ولا مؤامرة، وأن الدعوة انتشرت بين الجميع، والآن أصبح رجال المدينة ونسائها يطالبون الرسول ﷺ ويلحون أن يذهب معهم للمدينة، وأن يعيش بينهم.

وصمت الرسول لبرهة كانت تعني بالنسبة لنا جميعًا الكثير، فنحن ما كان بيدنا أن نقرر أي شيء أو نعلم أي شيء، ماذا سيحدث الذي حدث توقف عليه سير العالم كله ومستقبله، فتطبيق أمر ورسالة الله وهداية البشرية كلها كانت مقدرة على تلك اللحظة والقرار الذي سيليها، ولكنه لا ينطق عن الهوى إن هو

إلا وحي يوحى، القرار سيكون دائمًا في جانب ولنصرة الحق ولصالح البشرية، وطلب منهم الرسول الكريم المبايعة.

وكانت مبايعة العقبة على أن يؤمنوا بالله الواحد الأحد، وأن يحسنوا معاملة النساء، ولا يأدوا البنات، ولا يكذبوا، ولا يسرقوا، وأن يطيعوا تعـاليم الله، وأن ينصروه، وأن يكون عليه عليهم، وأنه إنما أتى للبشر جميعًا لا يختص بأحد منهم دون الآخرين، وأن يكونوا جميعًا سواء في الله، وأخوة في السراء والضراء، وأن الجنة تكون مثواهم إن هم أخلصوا لله الدين الحق، ووضع الجميع أيديهم في حفنة بها ماء لتتم المبايعة، حيث معروف الآن الإسلام لا يجيز ملامسة الرجل المرآة المحرمة عليه.

أنا بلال بن رباح العبد الأسود أصبحت بالإسلام حر، أتساوى في الحقوق والواجبات مع أي مسلم آخر، والكل يتساوون مع الرسول نفسه إنه دين الله دين الحق، الدين الذي أوجد دولة، وأمة، وعالم الأرض، وعالم السماء بواسطة رسالة الرسول محمد ﷺ رسول وخاتم النبيين.

* * *

* *

*

بلال يقص علينا قصة الهجرة للمدينة

أنا بلال بن رباح العبد الحبشي، اليوم أنا حر وقائد من قـواد المسـلمين، إنني أبتسم وأنا أقول لكم ذلك، ولكن أرجوا أن تغفروا لي غروري وافتخـاري بنفسي الآن، يقولون: إنه في عقل كل عبد فكرة تسيطر عليه، يجب أن يفكر في الفرار.

ولكنني أنا بلال بن رباح العبد كنت أحد قـادة إعـداد وترتيـب الفـرار والهروب من مكة للمدينة بالنسبة لجميع المسلمين المضطهدين، فأبو لهب الـذي يمتلئ صدره بالحقد ونيران الكراهية، التي يلفظها لهب مع أنفاسه، لم تكـن لـه هواية سوى تعذيب المسلمين، ولكن وحيث أن الشيطان كان يركبه ويعتلي ظهره ويقدم له الإنكار الخائن، كنت أنا بلال أهرب العديد من المسلمين من تحت أنفـه من مكة إلى المدينة، وما استطاع أن يكتشف لنا أمرًا، كنت أقسـم الجماعـات أقسامًا صغيرة، كل قسم يتجه من جهة معينة، تختلف عن القسم الآخـر، ولكـن الهدف واحد الهروب من الكفرة وتعذيبهم، وحماية ووقاية وإخراج المسلمين من نيران العذاب والحقد.

وكان الرسول محمد ﷺ يحدد، وينتقي، ويقسم، ويشرف، ويخطط، ويتابع هذه الجماعات، كان الرسول في كل مكـان لا يتـرك صـغيرة ولا كبيـرة إلا وفحصها ودرسها وتحقق من سلامتها، وإلى أن يصل المسلمون إلـى المدينـة سالمين كان الخوف الأكبر أن يتم القبض على جمع كبير للمسلمين، وهنا قطعًـا لابد وأن تحدث مذبحة رهيبة في الصحراء، وبالطبع كان التقسيم إلى جماعـات صغيرة، لا تتجمع أبدًا إلا عندما تشعر ببعدها عن الخطر، ومن عدم قدرة الكفار على الوصول إليهم.

كلفت بالإشراف على مجموعة مكونة من ستة من الرجال ومرآتين وثلاثة أطفال، وقد حمل الرسول الكريم أحد الأطفال لمدة ميل كامل، هل قلت لكم إنني قابلت أسدًا في الصحراء، وإنني هاجمته بمخالبي؟ لا... إنني أقول مفتخرًا بأنني كنت قائدًا لجماعة من المسلمين، على أن أصل بهم سالمين إلى المدينة، وقد فعلت، وهذا مبعث فخري.

إن المسافة ما بين مكة والمدينة تبلغ حوالي مائتي وخمسون ميلاً، في الصيف تستغرق الرحلة تسعة أيام، ومع وجود الأطفال تصل إلى اثنى عشرة يومًا. هذه المسافة تم قطعها بواسطة الملايين من المسافرين آلاف من السنين، وبالطبع تعمل الريح على إزالة آثار أقدام المسافرين في الصحراء، ولكن أقدامنا نحن لم تزلها الريح.

فنحن مختلفون نحن رسل الله وحاملي مسئولياته وتعاليمه للبشر، لسنا تجار ينقلون البضائع، إنه ومع مرور الزمن وعلى مر التاريخ البشري، سوف تظل علامات أقدامنا على الطريق، إنها خارطة الطريق إلى الحرية الإنسانية الدين الحق، ولنصرة وسعادة البشرية، وسيظل العالم كله يذكر هذه الرحلة.

اليوم الأول من السنة الأولى لرحلتنا الهجرة إنها تسجل التقويم والتاريخ لكل الدول العربية الإسلامية، فعلامات أقدامنا على الأرض حددت الزمن، كان الشهر يناير، وكان أسوء جزء من الرحلة، ولكنني بكل صراحة أقر بأنها لم تكن صعبة للغاية، فالرياح التي كنا نخشاها للغاية هدأت، والعدو لم يعد يطاردنا، والنجوم في السماء كانت ترشدنا وتنير الطريق لنا.

في اليوم الخامس قابلتنا جماعة من البدو مكونة من ثلاثة أو أربعة أفراد، ولكن أحد الأطفال قذفهم بالبيض، ففروا مذعورين، ولم نعد نرى لهم أثرًا.

وبالطبع كان معنا بعض المواد فلا يمكن لأحد أن يجتاز الصحراء دون أن يفكر في أنه سوف يتعرض للدغ العقارب، وعض الثعابين، وقسوة الحر،

والعواصف الرملية، جميع الأطفال أصابهم المرض من حين لأخر، ولكنهم كانوا يستمتعون كثيرًا عندما نحملهم على ظهورنا، فيضحكون مسـرورين متناسين الألم، وكان أحد المهاجرين مصابًا في قدمه لم أشاهد إصابته في قدمه، ولكنني رأيتها في عينيه التي يظهر بها الألم بصوره واضحة، وعندما وجدني أتفرس به أسرع في خطواته متظاهرًا بالنشاط والقوة والصحة والسلامة.

أخذنا نجري خلفه كي نحلق به بعد أن ظهر للجميع مدى إصابته وألمه، ولكنه رفض حتى أن ننظر إلى قدمه، وأشار علينا بيده انظروا إلى المدينة إنها وجهتنا، لا تنظروا إلى أي شيء آخر، فالمدينة هي هدفنا ويجب أن نصل إليها جميعًا، وحدث ذلك بالفعل وكانت الهجرة وكان تقويم المسلمين.

* * *

* *

*

بلال يخبرنا بقصة هجرة النبي

ولكن الهجرة كانت تحتوي على مخاوف لم نكن نـدركها، ففـي اليـوم السادس وجدنا حمزة كان يجوب الصحراء كعادته ليصطاد الأسـود أو ليخيفهـا [سمي أسد الله أو أسد الإسلام] أخبرنا حمزة بأن الرسول قد قرر البقاء في مكـة لحين مغادرة آخر مسلم لها.

بالطبع كان محمد ﷺ بتواجده في مكة يمنع المكيين عنا، ويحد من آذاهـم لنا، فطالما القائد والقدوة الرسول موجود لديهم وبين أيديهم، فمـا حـاجتهم لأي شخص آخر، وما قيمته مهما علا شأنه؛ لهذا كان الرسول يتنقل في العلن وأمام خصومه وأعدائه، الذين يبغون قتله، وذلك كـي يحمـي المسـلمين الآخـرين المهاجرين.

كان من السهل اليسير جدًا قتله، ولكن الحماية كانت تكفلها لـه السـماء، ومرت العديد من الأيام والأسابيع والحال هكذا، إلى أن حدث ما سأقصه عليكم.

فقد اتفق أغنياء وزعماء مكة على وضع خطة لاغتيال الرسول الكريم ﷺ، حينما كنا نحن نهرول مسرعين باتجاه المدينة من أجل حياتنا وأمنتا، كان هـو يضحي بحياته من أجلنا، وكانت السماء تحميه من أجل البشرية، كانـت خطـة أشراف وزعماء وأغنياء مكة لاغتيال الرسول ﷺ، هي انتخاب نخبة من أكـرم وأغنى وأشجع أبناء مكة، كل فرد منهم ينتمي لقبيلة قوية عزيزة منيعة، يقومون جميعًا بالاشتراك في عملية اغتياله، ثم غسل يديهم من وزر دمه الذي سـفكوه، وعلى جميع القبائل تقبل ذلك منعًا لسفك العديد من الدماء في العديد من القبائل.

كانت هذه هي خطة القادة، خطة الدولة، خطة الحكومة التي تحكم وتريـد أن تحكم مكة، وكان هذا هو منطقها، استدعوا سبعة من صناديد القبائل المكيـة، وطلبوا من السبعة أن يضربوا ضربة واحدة، وسوف تكون قاتلة بكـل تأكيـد،

وسوف يخشى ويجبن أي فرد من أن يطلب بدمه، أو يقوم بالثأر له أن الـدم إذا تفرق بين سبعة قبائل يصعب الثأر له... نعم عقلية غوغائية إجرامية.

ولكنها العقلية التي يسيطر عليها الشيطان، لا بل كان يتواجد بنفسه بينهم، وكثيرًا ما يفعل، فإما يذكي ويشعل ثار الفتنة، وأما يهبط ويتراخى عن كل معونة أو مروءة، هذا هو عمل الشيطان، وكان يرتدي لكل مكان وزمان رداءه وفعله، ويجب أن نعطي الشيطان حقه، فهو أحد الملائكة سابقًا، وهو على علم وذكـاء وقدرة على التأثير على جميع البشر؛ لأنه يعمل ويتحرك بفعل وقدرة الله وبعزته، ولكن هذا الفعل يتوقف ولا يؤثر فيمن يؤمن بالله ويؤدي تعاليمه، عندها يحـبط عمل الشيطان، فهو نفسه قد استأذن الحق في هذا، في أنه سيقوم بعمل كل شيء بعزة وقدرة ومشيئة الله، وسيتوقف عن عمل أي شيء لأي عبد مـن عبـاد الله المخلصين هنا ينتهي كل فعل.

إلا أن جبريل أتى إلى الرسول وأخبره بألا ينام في سريره الليلة القادمـة، وبالفعل تجمع رجال قريش أمام بابه منتظرين نومه لينقضـوا عليـه، وطلـب الرسول ﷺ من علي أن ينام في سريره، وأن يتغطـى ببردتـه الحضـرموتية الخضراء، وأنه لن يصبه سوء أو أذى، وفعل علي ذلك، فهو على يقين تام ممـا يقول الرسول وانخدع رجال قريش حينما كانوا يعتقدون أن محمد ﷺ يرقد فـي فراشه، كان هو يجهز للهجرة، وخرج الرسول وصناديد قـريش كلهـم يقظـة وتحفز، وسيوفهم مسلولة في أيديهم فقبض الرسول ﷺ حفنة تراب وهو يقول:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِـيمِ (٢) إِنَّـكَ لَمِـنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤) تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا

فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ (٨) وجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً ومِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (٩) ﴾[٣٧].

وهجم الفرسان على المنزل بعد أن أخبرهم أحد العرب أنه شاهد الرسول يخرج وينثر التراب على رؤوسهم، وبالفعل لم يجدوا أحدًا في فراش محمد ﷺ سوى علي.

ويقول بلال: وهو يبتسم إنه على الرغم من أن علي نام في الفراش بدلاً عن الرسول، إلا أن الفراش كان خاليًا. هذا ما شاهده الجميع مثلما شاهدوا علي بعد ذلك، وأصبح محمد ﷺ خارج مكة، ولكنه كان مازال في خطر، فقد أنذر أبو سفيان مكافئة مقدارها مائة ناقة لأي شخص يحضره ثانية لمكة، أو يحضر رأسه، وعلى الفور امتلأت الأرض بالفرسان ينهبون الصحراء نهبا بحثًا عن الرسول ﷺ، وطمعا في المكافئة، مائة ناقة إنها مكافئة يهون أمامها كل عناء وتعب.

وأقول لكم أنا بلال بن رباح: إنه ما من عمل أحب للفرسان مثل صيد الأسود أو الظباء، وما من مكافئة يجذبهم مثلما يجذبهم الإتيان بمحمد ﷺ، أنهم يريدون سفك دمه، وكأنهم هم شغفون بالذهاب لسعير جهنم، فهذا سيكون مصيرهم، أولئك الذين ضل سعيهم وهم لا يعلمون، ولم يسلك الرسول طريق الصحراء المعتاد للذهاب للمدينة، ذلك الطريق الذي سلكه مطارديه؛ فلاقوا ما لاقوا، ذهب الرسول في طريق آخر، واختفي في كهف بجبل ثور وكان أبو بكر بصحبته ﴿ويَمْكُرُونَ ويَمْكُرُ اللَّهُ واللَّهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ﴾[٣٨].

([37]) يس: ١- ٩.

([38]) الأنفال: ٣٠.

ولكن مائة ناقة أنها مكافئة لم يسمع بمثلها أبدًا، إنها تفتح شهية الفرسان، ولكنه في هذه المرة عبد حبشي مثلي تمامًا، كانوا يطلقون عليه سيد الصحراء، يقولون: إنه يستطيع تتبع طائر صغير في السماء من تشمم رائحته من الهواء، وأنه يمكنه أن يرى علامات وآثار الأقدام حتى على الصخور الصلدة الناعمة، بل إن أصدقاؤه يدعون أنه مثل الخنزير يستطيع أن يرى الهواء والرياح وقبل حتى أن تأتي. وفعلاً بعكس جميع الفرسان الذين توجهوا يمينًا لتعقب الرسول ﷺ توجهه هو يسارًا، أنه عبقري فذ كان يضحك ساخرًا ويقول لنفسه: إن محمدا ﷺ هو الذي يترك أثره خلفه وليس أنا..... إنه يرشدني إليه. لقد قادته مهارته إلى الغار، حيث يوجد محمد ﷺ ورفيقه أبو بكر الصديق، وجلس على باب الغار (غار كهف جبل ثور) ثم هز كتفيه، وجلس على مدخل الغار، فقد أتم عمله وعلى الآخرين أن يقوموا بعملهم، فيقتلوا محمد ﷺ.

وقف أمية وأبو جهل على باب الغار وهنا قال أبو بكر لرسول الله: لقد انتهينا فهناك أكثر من عشرين فارسًا ولا يوجد سوانا نحن الاثنين.

رد عليه الرسول ﷺ: لا إن الله معنا، أنا وأنت وهو، ومن كان معه الله فلا يخشى أحدًا.

وفي الحال نسج العنكبوت خيوطه على فم الغار وجاءتا حمامتان بيضاوتان، وبدأنا في بناء عش لهما وضعتا فيه بيضهما، بينما محمد ﷺ وأبو بكر منكمشان في ظلام الغار (الكهف) لا العنكبوت ذلك الحشرة الضعيفة ولا الحمام ذلك الطائر الأليف شعر بالخوف، ولم يتحرك أيا منهم وأسرع أمية سيدي السابق شاهرًا سيفه والغضب يغلبه على أمره، وهنا طار الحمام تاركًا بيضه، وفر العنكبوت، ولكن ظل عملهم موجودًا واضحًا لكل ذي عينين، وكل ذي عقل، فالدليل والحجة واضحة، هذا الغار لم يدخله إنسان منذ فترة طويلة تسمح للعنكبوت أن ينسج خيوطه، وللحمام أن يضع بيضه، وسب أمية الدليل الحبشي

واتهمه بالغباء ثم اعتلى ظهر جواده، وتبعه الدليل منكس الرأس، وسمعت أنه لم يعد يعمل ثانية كقصاص للأثر.

بالطبع أن ينسج العنكبوت خيوطه فهذا أمر طبيعي يتم كل يوم، ولكنه في هذا اليوم جاء لهدف محدد، إنقاذ حياة الرسول ﷺ.

وأن يضع الحمام بيض، فهو شيء ليس بالشاذ، ولا بالعجيب، ولكنه ثم في ذلك الوقت لحماية دين الإسلام ولنشر الدعوة الإسلامية.

وبقى الرسول ﷺ وأبو بكر بالغار ثلاثة أيام حتى يأس مطارديهم من الأمل في إيجادهم، وأن البحث عنهم أصبح بلا جدوى.

وفي اليوم الرابع جاءهم بدوي كافر (وثني) يدعى أرقاط بجملين محملين بالمؤن والماء، وكان هذا البدوي الوثني ملمًا بدروب الصحراء ومفازاتها، وبعد مسيرة يومين بجوار البحر الأحمر قطعا مسافة كبيرة على شكل نصف دائرة نحو الشمال، مبتعدين تمامًا عن جميع الممرات المعروفة للجميع، وأثناء ذلك جاءهم الخطر ثانية على يد رجل آخر كان يطمع في نيل المكافئة المائة جمل، إنه الفارس سراقة لحظة أن شاهدهما انطلق بفرسه شاهرًا سيفه والآمال تداعب خياله لقد حصل على المائة ناقة، ولكن ما هذا؟ إن حصانه الأصيل المدرب تتعثر قدماه في الرمال، ويسقطه عن ظهره ما هذا؟

إنه عار على أي عربي فما بالك وهو الفارس وحصانه المدرب، قام ينفض عن نفسه التراب، وامتطى جواده واندفع مسرعًا ليتعثر ثانية، إنه أمر غريب وكرر التجربة عدة مرات؛ فيحدث نفس الشيء.

صاح وهو على قدميه: يا محمد إنني لن أسلمكما لأعدائكما، ولكنني لي حديث معكما فأذن له الرسول. وركب فرسه وانطلق كعادته دائمًا، ولم يقل لهم سراقة شيئًا سوى أنه شهد بأن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وأسلم سراقة في مكانه بالصحراء، واستأنف الثلاثة سيرهم تحت نيران الصحراء وحرها

القاتل، يحتمون في الظهيرة بملابسهم على رؤوسهم، ويتحركون لـــيلاً عنـــدما يتحسن الطقس.

واستمروا على هذه الحال لمدة أسبوع، وفجأة وبعد ظهـــر أحـــد الأيـــام شاهدهم يهوديًا معروف بحدة النظر، صاح ملوحًا؛ فحضر المهاجرين الذين فـــي المدينة وهم يهللون ويضحكون ويلوحون بأيديهم، مرحبين بمقدم الرسول، وكانت الهجرة وكان التاريخ الإسلامي، فالهجرة هو العام الأول في التقويم الإسلامي.

* * *

* *

*

بلال يخبرنا عن رغبة الجمل واختياره

أسفل أقرب نخلة، وقبل أن يترجل عن دابته، كان علـــى الرســـول ﷺ أن يتخذ قراره بالنسبة لقرار إجراءات وكيفية حكم المدينة؛ لأنه ومنذ أول خطوة له يخطوها في المدينة كان عليه أن يمنع انقسامها وتحزبها إلى أحـــزاب وأقســـام يعارض بعضها البعض ويصارعه، بل ويصل إلى حـــد الحـــرب [بـــين الأوس الخزرج] فمن كل صوب وحدب كان الجميع يرضون به.

وبالطبع قد يكون الترحيب نابعًا أساسيًّا من حب وإيمـــان، وقـــد يكـــون لمصلحة يريد كل طرف أن تحقيقها لنفسه، فالضيف والزائر الهام، عادة ما تقدم له كافة أوجه الترحيب والتكريم، وقد يؤثر هذا على صيده قراراته فيما بعد، فهو يظل سجين الترحيب، وما قدم له من حفاوة، خاصة إن لـــم تكـــن خالصـــة أو مخلصة لوجه الله وبقصد الصالح.

سلول ذلك المنافق المرائي كان أكثر المرحبين إصرار على تقديم الحفاوة المبالغ فيها، فقد أخذ بخطام جمل (ناقة) الرسول، وكأنه يريد أن يوجه الرســـول إلى حيث يريد(٣٩). نعم كان يريد أن يوجه الرســـول حتـــى تحقيـــق طموحاتـــه وأحلامه قال: إنني أملك أفضل وأفخم بيت في المدينة، ابقى معي فلـــدي أفضـــل وأنضر الحدائق وطعامي أفضل الطعام.

(39) عظمة وحكمة الرسول التي لا يمكن لبشر كائن من كان أن يدركها في حينها، ولحظتهـــا أنه قال للجميع: اتركوها إنها مأموره. وسوف تحدد المكان الذي سوف أنزل به تـــرك الأمـــر لحيوان كي ينتقي ويحدد، وليس لإنسان حتى لا تكون هناك مجرد شبة تحيـــز، وهـــل يمكـــن لحيوان أن يتحيز؟ وما ينطق عن الهوى أن إلا هو وحي يوحي.

قرار صعب قرار خطير أن أنت اتبعت أو ملت لأي شخص؛ فأنت ترفض الآخرين، ولكنني وكما لاحظت وشاهدت بعيني، فإن أصعب القرارات وأكثرها تعقيدًا يمكن حلها واتخاذها بأبسط الطرق وأسهلها إن خلصت النية وصدق القصد والسبيل.

ولكز الرسول ناقته القصواء في رقبتها يحسها على المسير، وهو يقول: إنه من الصعب جدًا الاختيار بين رغبات كل هؤلاء الأخيار، ولكن وحيث أن ناقتي القصواء أخلصت لي في الطريق ولم تخطئ مرة واحدة، فإنني سوف أترك لها الخيار في حل المشكلة العويصة، دون أن يغضب فردًا واحدًا من المرحبين، سواء صدقت نيتهم وخلصت أم لا.

ظهرت الحيرة والتردد على وجوه الجميع باستثناء القصواء، وأخذت في المسير في طريقها دون توجيه من أحد. وقال الرسول: حيث تبرك القصواء سوف أبني مسجدي، وسيكون منزلي، وتتبع الجميع القصواء يسيرون خلفها ويتتبعونها، لقد انتقت الناقة مكان إقامتنا جمعيًا، ومحور حياتنا اليومية منزل الرسول ومسجده وقبره، لقد ترك الرسول أهم وأخطر القرارات السياسية لهذه الناقة كي تقرره.

وسارت القصواء لمسافة، ثم توقفت تتشمم الأرض وتأكل بعض العشب، ثم استأنفت سيرها ونحن جميعًا من ورائها. وسمعت ابن سلول وللمرة الأولى في حياته المليئة بالنفاق والرياء يقول كله صدق: "إنه أذكى كثيرًا مما كنت أتوقع، اختيار يتم بواسطة جمل (ناقة) لن يستطيع أحدًا أن يقول فيه شيئًا.

وكان يومًا مشهودًا، نعم يومًا مشهودًا في حياة المسلمون وفي الجمل – القصواء –، بل وبعد موتها لقد عرفها العالم كله من وقتها، وإلى أن تقوم الساعة أن الكمال لله وحده، ولكن الحيوان يمكن أن يأتي بأفعال وجهه الله لها، يصعب كثيرًا على البشر أن يدركوها، بركت القصواء وأخذت تجتر طعامها وتهز ذيلها

لتطرد الذباب عنها، ولم يستطيع أحدًا أن يحركها البتة من مكانهـــا، وتوجهــت بأنفها باتجاه بيت المقدس شمالاً ثم جنوبًا باتجاه مكة، ثم مدت رقبتها ووضـــعت رأسها على الأرض، هذا مكان راحتها، وهذا هو المكان الذي اختارته، ووقـــف الرسول الكريم ﷺ وصاح: "**هنا سوف يكون منزل، وهنا سوف أبني مســجدي، وهنا سوف يواري جسدي.**

* * *

* *

*

بلال يرفع أول آذان

وعند الفجر بدء العمل في بناء المسجد، وقام الرسول ﷺ بتخطيط ورسم حدوده بسن رمحه، وكانت الحدود بين خمس نخلات، وكأن الله أخرجها من الأرض لهذا الغرض؛ كي تكون هي أعمدة المسجد النبوي، وبالطبع كانت مشيئة الله هي التي أرادت ذلك كله، وعندما شاهدنا الحدود والخطوط التي اختطها الرسول ﷺ بسن رمحه، قام الجميع وعلى الفور بالعمل في بناء المسجد، والسرور والفرح يغمر روح ووجوه الجميع.

كان البعض يحفر ويدق الأرض بقدميه ويسوى التربة بيديه، صنعنا الطوب، وحملنا الأحجار، ونشرنا الأخشاب، وسوينا الأرض، انتزعنا الشجيرات، وحفرنا المصارف، تسلقنا السلالم، وحملنا السلال، ربطنا الأربطة التي تصل الأخشاب، كان العمل يؤدي من القلب وبقناعة من النفس، كنا نؤدي العمل بخفة ورشاقة كل من يرانا يقول: إنهم يرقصون أنه حفل وفرح كبير.

وحمل رسول ﷺ الحجارة والطوب، وتسلق السلالم بقوة يحسده عليها أشد الرجال، ما كان يفعله الرجل الشديد القوي إلا يرقد في فراشه لعدة أيام، كان يتحرك في كل مكان، وكان الأطفال يسيرون خلفه يتبعونه مسرورين فرحين وكأنهم يمرحون ويلعبون لعبة جميلة تسرهم بالبُشر، والضحك يملأ وجوههم وآذاننا.

حاولت مرة أن أساعد الرسول، وأن أحمل عنه فقال بضحكته الرائعة: "**بلال ساعد الضعفاء**". جريت مسرعًا وتسلقت إحدى الأشجار مبتعدًا عن الضعفاء، فهم كثيرون فترى من أساعد منهم، ضحك الرسول ومسح العرق المتصبب عن وجهه، فنزلت ثانية مسرعا أساعد من أجده أمامي، ابتسم الرسول وحمل طفلاً صغيرًا بذراعٍ وقالبًا من الطوب بذراعه الآخر، ووضعه في الحائط

قائلاً للطفل: حتى تستطيع القول بأنك شاركت في بناء المسجد (مسـجدي). ثـم تركه ليهبط من على ساعده ويجري لأمه وعلى وجهه ابتسامه أعرض من وجهه كثيرًا.

لم يكن بقدرة أحد أن يجعله يستريح، حتى ولا حمزة الذي حمـل الـرداء الذي وضعه الرسول ﷺ حول رأسه وقد غطاه التراب نفَّضه، ثم قدمه له راجيًـا أن يستريح، ولكنه فشل في إقناعه، هنا تجمعنا سويا ونحن نشـدو لا يجـب أن يجلس أو يستريح أحد بينما الرسول يعمل، إذا فعلنا ذلك فقد يقول الله: لقد خالفوا. لقد كان للرسول قصد ومعني من العمل بهذه الطريقة، فهو كعادته يعطينا في كل عمل يقوم به درسًا..... العمل عبادة..... والله يحب اليد العاملة، ويمنعنـا مـن سوء معاملة الحيوانات وتحميلها ما لا طاقة لها، من يـؤذي الحيـوان سـيكون مصيره نار جهنم، لكل هذه الأشياء فإنه يجب علينا الإسراع ببناء بيت الله مسجد الرسول، حيث تعلم ويعلم الجميع تعاليم الله.

* * *

* *

*

الصفحة الأولى في التاريخ

بكل تأكيد كانت هناك العديد من المباني الأكثر جمالاً وروعة من ناحية البناء المعماري، فنحن جميعًا الذين ساهمنا في بناء المسجد لم يكن منا واحد متخصص في العمارة والبناء، ولا أدعي إنني وقفت يومًا ما أسفل قبة مثل تلك القباب الضخمة الموجودة في الكنائس البيزنطية، ولكن الذي صنعناه لقد صنعنا بيتًا لنعبد الله فيه، وهذا هو الهدف، وهذا يكفي عندما جلسنا لنستريح على الأرض بعد انتهائنا من العمل، نظر العاملون لأعلى لسقف المسجد، حيث كانت أشعة الشمس تتخلل عيدان الجريد من الفجوات التي بينها، قال حمزة كلمته الرائعة "إنه يشبه مهد موسى" [معلوم أن المهد الذي وضع فيه موسى، ثم ألقي به إلى النهر، فحمله المهد إلى حيث كتبت له النجاة والاستمرار في الدعوة والانتصار على الفرعون].

وقد أعجب الرسول ﷺ كثيرًا لهذا التشبيه والمقارنة، في الحقيقة كان مكانًا رطبًا باردًا ينعش الروح والنفس ويسر العين، كان ظلاً أخضر. ولكن بالرغم من أن المسجد قد بني إلا أنه لم يستكمل تمامًا، وكان علي بن أبي طالب هو الذي أخبرنا إنه بحاجة للمسات كثيرة أخرى "فقد نسينا الكثير" ثم أشار بيده إلى السقف... علامة أو شيء عالٍ وطريقة ندعو بها الناس للحضور والدخول للمسجد، اقترح عمار يمكننا أن نضع علمًا على أعلى المسجد.

وأخذنا جميعًا نتناقش في الوسيلة التي يمكننا بواسطتها دعوة الناس للصلاة، وجلس الرسول ﷺ يستمع لنا ويراقب ما نقول ونفعل. قال قائل: لماذا لا نستخدم جرسًا؟

رد عليه القوم: المسيحيون يستخدمون الأجراس.

قال آخر: وما القولُ في طبله؟

رد عليه أنها وسيلة للحروب وسفك الدماء.

قال قائل: يستخدم البوق مثل اليهود؟ وكانت ملحوظة قوية ولكن البعض قال: إن التشبه باليهود لا يليق، كما وأن البوق به بعض بقايا الحيوان. وصمت الجميع وأخذوا يفكرون ويفاضلون بين المقترح جرس طبله بوق علم.

ثم رأيت عبد الله بن زيد يقترب على استحياء ويمشي بوجل، وقد بدا عليه شيء من الخوف والتردد، ذلك الرجل الذي تصبح فكرته عملا يأخذ به العالم الإسلامي على كوكب الأرض، رأيت من نظراته أنه يريد أن يقول أو يفعل شيئًا، فأخليت له مساحة بيني وبين رسول الله ﷺ.

يا رسول الله: "لقد حلمت بصوت إنسان يردد الآذان بالدعوة للصلاة، صوت إنسان يدعونا للصلاة، كرر كلماته كما لو أن أحدًا منا لم يسمع ما قاله أولاً صوت إنسان عادي.

ونظرت إلي وجه الرسول ﷺ فوجدت قطرات الدموع تنساب من عينيه، ومال للأمام مقتربًا من عبد الله وقال: **"نعم هذا ما سيكون أن ما حلمت به كان رسالة من الله سوف يكون الأمر مثلما قلت أنت تماما"**. صوت إنسان كانت كلماته هادئة وقوية، وعرفت أنها الكلمة النهائية، وانتهى الأمر واستقر، ولكن أي صوت؟ صوت من؟ وكيف سيكون؟ هل سيكون صوتًا هادئًا ناعمًا؟ هل سيكون صوتًا حلوًا؟ أم سيكون صوتًا قويًا؟ أخذ عقلي يقلب كيف سيكون هذا الصوت؟ صوت أطفال، صوت رجال، صوت عجائز، صوت جنود، وهنا شعرت بيد الرسول الكريم توضع على كتفي.

سيكون صوتك أنت يا بلال!

لم أصدق أذناي ولكن هذه هي يد الرسول على كتفي، وانتفضت ولا أدري لماذا، وقادتني طبيعتي كعبد سابقًا أن أتحرك وأعمل حتى قبل أن أفكر أو أفهم،

لقد شاهدت جميع وجوه الحاضرين في المسجد وقد اتجهت صوبي ثـم تطأطـأ لأسفل.

ولكنني أنا الذي سوف أصبح صوت الإسلام، لم يكن لدي شـيئًا لأقولـه، وتقدم مني سعيد ووضع يده في يدي، ثم قال لي شيئا كلما تذكرته أبكي فخـرًا: إنني أتمنى أن تكون لدي موهبة كهذه كي أهديها للإسلام. وأرجوكم أن تفخـروا لي تفاخري بهذا الحدث، ولكنني أحب سعيد جدًا وهو الذي أعطى الكثير يقـول ذلك لي أنا بلال بن رباح، ثم نهض الرسول ﷺ ونظر إلي في وجهي مثلما ينظر لأي رجل آخر، ولكن يجب أن أعترف بأنه قال لي ما يفوق أي قول لأي أحـد **"أنت تحظى بأجمل صوت يا بلال استخدمه"**.

يا رسول الله ماذا أقول؟ إن مشيئة الله عندما تقع على إنسان، فلا يجب أن يقول شيئًا، حتى ولو كان هو نفسه لا يريد ذلك الرسول، عندما هبط عليه الوحي وحدثه فر منه وغطى نفسه بالبطانيات.

إنني لا أقارن نفسي ما شاء الله، ولكنني أقول ذلك؛ لأنني بالفعل كنت في أشد الحاجة للبطانيات كي أختفي أسفلها، ولكن للأسف لم تكن هناك بطانيات، ولم يكن هناك مكانًا يمكنني أن أختفي فيه، لا مفر من أمـر الله إنـه إذا أراد شـيئًا فسيكون.

"اذهب الآن اصعد إلى" هناك هكذا قال الرسول: وأشار بإصبعه، ونظرت إلى حيث أشار، إلى حيث أرسلني إلى سطح المسجد المبني من الطين.

بالطبع أنتم جميعًا شاهدتم مآذنكم، وكم هي جميلة درجاتها، وكم هي آمنة شرفاتها، وكم هو جيد ارتفاعها، المؤذن يمكنه أن يحتفظ بأنفاسه، تتردد بانتظام عندما يصعد إليها لينظر إلى الأفق أول مرة، ولا ينظر إلى الخيط الأبيض مـن الخيط الأسود كي يحدد ميلاد يوم جديد، ولكنني عندما صعدت كـان علـيَّ أن أصعد إلى أعلى نقطة في المسجد، معتمدًا في هذا على قدماي وساعدي ومهارتي

في التسلق، مستخدمًا إمكانياتي كلها قدماء وبطني وركبتاي، وحتى ذلــك كنــت مازلت في ارتفاع أدني من ارتفاع نخلة، ولكن أسوء من هذا أنني عندما وصلت لأعلى، لم يكن هناك أي شيء في رأسي، ولم يكن هناك من يلقني الكلمات سواء تذكرتها أو نسيتها.

أسفل كانت هناك عديد من الوجوه تنظر إليَّ، تنظر إلى أعلى، والله وحده يعلم أنني أنا بلال بن رباح أول مؤذن في الإسلام، الوحيد الذي يمكنه أن يصف لك منظر تلك الوجوه المنطلقة لأعلى، حيث أن عملية التسلق قد تصيب الإنسان بالغثيان والدمار، ولكن كل هؤلاء المنطلقين إليك من أسفل والمتجهة وجــوههم إليك تمنعك من الدوار أو حتى السقوط أول مرة، ودون أي كلمة يمكن أن أقولها نظرت لأسفل، وإلى حيث كان الرسول ﷺ واقفًا بجوار العمود (نخلة) الثالث مع أبو بكر وبجانبهم يقف عمر بن الخطاب، كان عمر طويلاً جدًا فــارع الجســم، حتى ليبدو أن طوله يصل إلى منتصف نخلة، ورفع الرسول يديه إلــيَّ مشــجعًا وطالبًا مني أن أبدأ قائلاً: "**الله أكبر وأشهد أنني رسول الله ونادي على الصلاة**". وهنا وجدتني أرفع صوتي بالآذان[٤٠].

الله أكبر........ الله أكبر

الله أكبر........ الله أكبر

أشهد أن لا إلـــــه إلا الله

أشهد أن لا إلـــــه إلا الله

أشهد أن محمد رســــــــــول الله

أشهد أن محمد رســــــــــول الله

---

[40] جاء عبد الله بن زيد إلى الرسول ﷺ، وأخبره أنه حلم بأن الله يأمره بأن يردد هذه الكلمات (الأذان)، فطلب الرسول سماعها وبعدها أخبره أنها أوامر الله وتعاليمه ويجب تنفيذها، وقد كان الآذان الذي أمر بلال بأن يردده بناء على أمر الرسول وحلم عبد الله بن زيد وتعاليم الله.

حي على الصلاة........ حي على الصلاة

حي على الفلاح........ حي على الفلاح

الله أكبر........ الله أكبر

لا إله إلا الله

والآن وفي جميع أنحاء البلاد الإسلامية وغير الإسلامية يرفع الآذان بهذه الكلمات خمس مرات يوميًا، ولكنني أنا الذي نطقت بهذه الكلمات أول مرة لا أعلم من أين جاءتني، هذه الكلمات لقد أمرني الرسول أن أرفع الآذان ووجهني لذلك، فوجدتني أقول هذا، وأعجب كثيرًا هل عندما رفع يديه إلى الرسول ﷺ وطلب مني أن أبدأ الآذان أعطاني الكلمات؟ لأنني لم أعتقد أبدًا بأنني الذي وضعت هذه الكلمات، ولكنني على يقين من أنها صبت في صبًا، والله أكبر ولا إله إلا الله محمدًا رسول الله.

وعندما هبطت طلب مني الرسول أن أجلس بجانبه، وتحلق الجميع حولنا، وأخذ الأطفال يطوفون ويلعبون حولنا في فرحه وسرور لم أشاهدها من قبل، كان منظرًا عجيبًا، رسول الله ﷺ يجلس مع عبد ابن عبد زوج من البشر، ولكن الفارق كبير.. كبير.. كبير، وقام الرسول بعد فترة صمت كبيرة ليؤم المصلين، وسحبني من يدي وهو يقول: **"بلال لقد أكملت مسجدي"**. ومع توافر جموع المصلين استجابة لندائي أقررت أمام الله أنني حققت حياتي.

* * *

* *

*

بلال يقص علينا قصة الرسول ﷺ واضع القانون

في المدينة استطاع الرسول ﷺ أن يقوم بأداء رسالته السماوية بسهولة نسبية، فالمعارضة والمحاربة قلَّت أو هدأت إلى حين، إلا أنه أصبح معرضًا للحرب والهجوم من ناحية أخرى، فالتعاليم والقوانين التي آتى بها أصبحت تحت الدراسة والفحص والمراقبة، بل أصبحت حياته هو وتصرفاته محل العناية الفائقة.

محمد ﷺ رسول الله ليس كغيره من الأنبياء، فهو لم يتجلى الله عليه للحظات، ثم يقوم بعدها بعرض رسالته على أتباعه، وليس كعيسى قدم المعجزات فآمن بها من شاهدها ومن لم يشاهدها، وأصبح موته وسيلة للإيمان به، لا.. محمد ﷺ كان يعيش وسط آلاف المدنين (سكان المدينة)، وعلى مختلف معتقداتهم يقدم لهم يوميًا كل جديد، كل ما تريده السماء لبني البشر وللكون من تعاليم وأعمال، أثبت الاختيار والفحص والتحميص أنها تعاليم سماوية، لا يمكن لكائن ما أن ينكرها إلا من حق عليه القول.

كان محمد يعيش بين الناس حياة يراها الجميع ليلاً ونهارًا في الضوء، فهو رجلاً نبيًا مرسلاً لا يخفى عليه شيء، ولا يخفي عن أحدًا شيئًا.

وأنا بلال بن رباح كنت أذهب إليه قبل الفجر بقصد أن أوقظه للصلاة، رغم إنني أعلم تمامًا، وأرى كم كان يقضي الليل يصلي بالنهار، في العبادة والصلاة وفي أدبه الذي أدبه الله كان يقابلني مبتسمًا متظاهرًا بأنه قد صحى على صوتي؛ كي لا يقلل من عملي ومجيئي إليه، وحتى أشعر بأنني أؤدي عملاً كبيرًا جليلاً، ببساطته وتواضعه الشديد يبحث عن نعله في ظلام الفجر، لم يكن ينتظر في فراشه كمن يعتقدون في أنفسهم أنهم عظماء حتى يأتي أتباعهم ليوقظوهم، ويقومون بالخدمة عليهم وتجهيز حاجاتهم والإعلان عن حضورهم، كان يصحو

مبكرًا من نفسه، وعلى وجهه تشع ابتسامة تـنير الكون كله، وكم كنـت أحـب مشاهدتها على وجهه. يقوم ويسير معنا يقوده ويقودنا جو من الحب والبسـاطة والمشاركة، يستمع لما نقول، ويشاركنا القول، ويقدم النصيحة والعون كفرد منا، وليس كحاكم أو سيد أو ملك.

كان وجهه الكريم يزداد جمالاً، يحمره الخجل والتواضع، لم يكن أبدًا يبدأ بالحديث، دائمًا بالسماع لنا من الرد عند الحاجة وللتوجيه والتعلـيم والإرشـاد، وكان يستمع لنا بشغف واهتمام، وقد مال بجسده للأمام وكأنه تلميـذ يخشـى أن تفوته كلمة، وهو الذي ملك مجامع الكلم وخضوع الكون ووحي السماء، ولكنه ما كان يفرض رأيه أبدًا، ولا يجبر أحدًا أبدًا، ولكننا كنا جميعًا على تمـام اليقـين والاقتناء والإقتداء بكل ما يقول ويفعل، إنه يبسط ويشرح وينفذ قـانون وتعـاليم السماء لتصبح قانونًا ودينًا للجميع.

تواضعه الجم وأدبه الشديد كانا يحتمان عليه الصمت المؤلم وغير المريح، حتى ينتهي الجميع من كلامهم، ثم يجيب كل فرد بما هو حق، وكم كنـت أرى على وجهه مظاهر الألم يحاول أن يخفيها عن كل مـن يحـاول أن يفخمـه أو يعظمه، أنه يؤلمه جدًا كل من يمدحه، ويرد موجهًا كلامه في الفضـاء؛ كـي لا يشعر المتحدث بالتوبيخ أو الإهانة فيقول: "**إنني مجرد رجل، أنا لست سوى رجل منكم، إنني عبد من عباد الله مثلكم تمامًا، إنني آمل أن يمنَّ الله علي بالجنة**".

كنا جميعًا على أتم ثقة من أنه أول، بل أن الجنة ما كانت إلا من أجلـه، وكان هو يقول: "**حسبي من عملي أن يرضى الله عني ويوفقني، وآمل أن أنال رضاه ويدخلني جناته**".

كان دائمًا الأعلى عند الله وعندنا جميعًا، أما هو فكان يقول: "إنني كمثـل أقل رجل منكم". كم من ليلة رأيته ينام جوعانًا؛ لأنه قدم ما عنده من طعام لمـن هو أشد منه جوعًا، ما كان يقدم نفسه أبدًا على أحد رغم هو ما هو.

أصبح الآن قانوننا الذي يسير على هداه، هو ما يفعله الرسول من أفعال، نفعل ما يفعل، وننتهي عما ينتهي عنه عن اقتناع، فقد شاهدنا حياته أمامنا كتابًا مفتوحًا لا يضم سوى كل ما هو خير، ما هو يحقق العزة والكرامة، نحن نحفظ ونتذكر كل فعل فعله الرسول، وكل عمل قام به ونطبقه، وكذا كل قول قاله فهو لا يفعل ولا يقول إلا خيرًا دائمًا أبدًا، قليل جدًا مما فعله أو قاله سقط منا، فالرجال ليل نهار يرددون ما قاله وما فعل، ولكن أخشى ما أخشاه أن ينقص أو يزيد من كلامه، وهذا حدث أحيانًا، ولكن هناك الكثيرون من الرجال الثقاة الذين وثقوا جميع أقواله وأفعاله وحفظوها عن ظهر وأطهر قلب؛ لأن محمد لا يقول ولا يفعل إلا ما ينص عليه القرآن كتاب وكلام رب العالمين، وصدقت السيدة عائشة "**لقد كان خلقه هو القرآن**".

* * *

* *

*

بلال يقص علينا أنباء معاركه

أثقل حمل حملته سيفي، فأنا لا أجيد القتل أو الحرب، ومهما حاولت فإنني لم أجعل من سيفي العمل الذي أبرع فيه، فأنا لا أجيد الكر والفر، ولا مصـــارعة ومقاتله الرجال، مناجزة ومنابزة الرجال هو الفن الذي برع فيه حمزة وعلي، وقد عملا ما في جهدهما لتعليمي وتدريبي على ذلك، من أجل الجهاد في سبيل الله.

وفي الحقيقة وقبل موقعة بدر، كان علي بن أبي طالب يتدرب معي يوميًا خلف المسجد على المبارزة كل صباح، كان يوضـــح ويشـــرح ويقـــوم بعمـــل الخطوات والتحركات والخدع التي تتم لمبارزة الحروب، وكنت أستخدم قـــدماي بمهارة وخفه، بحيث أثني عليَّ حمزة، وأعجب بي علي بن أبي طالـــب، ولكـــن يداي ليس بقوة قدماي، ولكن الأبطال الذين في الصفوف الأولى للمعركة أبطـــال الخصم المشهود لهم كانوا لهم رأي آخر، فهم يفرون أمامنا، وأعتقد إننا انتصرنا في المعارك بقوة الإيمان وبعيوننا، فقد كانت تظهر وتعبر عما بداخلنا أكثر ممـــا كانت تعبر عنه قوة أرجلنا وسواعدنا.

لقد كنت في موقعة بدر نعم وكان الرسول ﷺ يطلب مني شيئًا واحـــدًا، أن أصيح بأعلى صوتي الله أحد، الله أحد. كانت هذه هي صيحة المعركـــة صـــيحة جيش المسلمون، وكان الرسول القائد الذي لا ينطق عن الهـــوى ولا يعمـــل إلا الحق الصحيح يعلم تمامًا إمكانيات وقدر كل رجل في جيش المسلمين، فقد طلب مني أن أكون مسئولاً عن إمدادات الغذاء والتعين، وإعـــداد الطعـــام للجيـــوش، وعندما تضع في اعتبارك عدد المسلمين في هذا الجيش لا يزيد عـــن ثلاثمائـــة رجلاً، بالطبع سوف ترى أنه عدد هين بسيط، ولكننا في ذلك الوقت كنـــا علـــى درجة من الفقر والحاجة لكل شيء، بحيث يصبح إعداد الطعام وتجهيز المـــؤن لثلاثمائة رجلاً يحتاج لعناية الله، يحتاج لأن يقف الله بجانبنا أمام عـــدة وعتـــاد

وإعداد الخصوم، ولكنني قمت بواجبي دون حاجة لمعجزة، قمت بما أؤمن به بدافع في داخلي يدفعني لعمل الحق ونصرة الحق؛ لأننا كنا على الحق.

كنت أعد كل شيء وأجهز كل شيء بكل دقة وعناية، لا أفرط ولا أسرف، وكان البعض يدعون إنني مثل الدجاجة التي تبحث عن حبة القمح تحت الأرض تنبش عنها، نعم كنت هكذا. أما قولهم: إنني كنت أتتبع جيوش وقوافل النمل أسلبهم ما يجمعونه من أجل تقديمه لجيوش المسلمين فهو مبالغة، ولو أنت تمثلت فعل النمل تمامًا أجهز المؤن وقت الوفرة للانتفاع بها عند العسرة، هناك أوقات يحتاج فيها الجيش لكل حبة قمح، وفي النهاية كانت النتائج هي خير دليل على ما تقدم من عمل، فلم يعاني مسلم واحد في موقعة بدر من سوء أو قلة الإمدادات. ولكنني الوحيد الذي كنت أعلم يقينًا أن الله هو مدبر كل شيء، وهو الفعال لما يريد، فنحن لم نبدأ أبدًا بالعدوان، ونحن نحارب دفاعًا عن العقيدة، ونحارب عندما نتلقى الأوامر بالدفاع عن النفس ونحارب لمدة وبطريقة محدودة.

في الحرب أثبت الرسول ﷺ أنه مثلما هو كامل في كل شيء، فهو في الحرب كذلك مثل أعلى للقائد الخبير بساحة القتال والمقاتلة وأسلحة القتال، بل والروح المعنوية للمقاتلين، وكذا بالحرب النفسية، أنه القائد المثل الأعلى الذي يتصدر القتال، هو نفسه المثل الأعلى للنظام والتقييد بفنون وتقاليد القتال، إذا أردت أن تتحدث عن الصمود لا إذا أردت مشاهدة الصمود والثبات فهو محمدﷺ.

كانت حرب الصحراء جديدة علينان وكنا نجيد فن القتال في الدوامة أي الدوران والالتفاف المستمر مع الهجوم على الخصم في شكل دوائر متحركة تثيره وتربكه وتوقع به أكبر الخسائر. وكان القتال في الصحراء يحتاج لأعداد صغيرة معزولة عن بعضها البعض تكون في مجموعها الدوامات التي تحيط بالعدو لتفرقه، ولكن الرسول القائد خرج علينا بخطة التماسك والترابط

والاصطفاف فيما بيننا البعض، كان يجعل من كل رجل لبنة وحجر، يكون قلعة حصينة يصعب اختراقها، الرجل مع الرجل يكون اثنان والاثنان أربعة، وأربعة رجال تعني أربعة أنواع من الأسلحة: سيف، ورمح، وسهم، ودرع. كلها تعمــل مع بعضها، وكلها تعزز وتشد من أذر بعضها.

وتركنا محمد ﷺ وذهب لخيمته كي يصلي، ولم ينظر لميــدان المعركــة، ولكنه وقبل أن يذهب وعدنا النصر أو الشهادة، اليوم الجنة تحت ظلال السيوف، والذي سوف يستشهد اليوم فسوف تحمل روحه الملائكة إلى جنة الخلد، وحــذر الجميع من التراخي أو الانسحاب ما لم يكن هذا بقصد الهجوم من منطقة أخرى، وهنا تكون الإصابة في الظهر محاولة للإصابة في الوجه.

إنني أقص عليكم هذا؛ لتعلموا كيف كان الرسول معنــا لحظــة بلحظــة، يوجهنا ويسبقنا لعمل ما يقول. الحرب أو الشهادة ثمنها الجنة، والمسلم لا يفر ولا ينسحب أبدًا دائمًا يواجه المعركة، ولذا دائمًا يصاب من وجهه، كــان محمــد ﷺ يقنن كل شيء معاملة القتلى والجرحى والنساء، وعدم الإيغال في القتل وســفك الدماء، والمسارعة لقبول الصلح السلمي، لا سبيل لدية سوى النصر أو الشــهادة نادى عليٌ بصوته الهادئ الواثق الجميل: "بلال". ثم خاطبني في هدوء لــم أراه عليه من قبل اضطررت أن أميل عليه حتى أسمع ما يقول.

في اليوم الثاني (اليوم التالي) وقفت أصيح بأعلى صوتي، وقفت وظهري إلى أشجار المدينة ووجهي باتجاه الصحراء، حيث تزمع المسير، وصحت قائلاً: هذه هي قواعد الحرب وقوانينها.

- يجب أن لا تؤذي امرأة أو طفل.
- يجب أن لا تؤذي رجلاً يعمل في حقل.
- يجب أن لا تؤذي رجلاً عجوز أو مقعدًا أو ذو عاهة أو معاق.
- يجب أن لا تقطع أو تفسد زرعًا أو شجرًا أو نباتًا.

- يجب أن لا تشرب ماء دون استئذان أو تأكل طعام دون دفع ثمنه.
- يجب أن لا تقيد أسيرًا أو تركب بينما هو يسير.
- العدو الذي يستسلم لك يجب أن تعامله باللين والعطف.
- يجب مراعاة الأطفال وعدم إيذائهم.

ويلاحظ هنا أن الرسول طلب مني مراعاة الأطفال مرتين.

ومن ثم تركنا المدينة حوالي ثلاثمائة وأربعة عشرة رجلاً، ومعهم سبعون جملاً وحصانين اثنين فقط، وكان في المقابل قوات العدو حوالي ألف مقاتل، ومعهم سبعمائة وخمسون جملاً ومائة حصانًا. وقمنا بلف لحاء الأشجار حول أجسادنا كنوع من الدروع، بينما الخصم يرتدي الدروع المعدنية، ويعلون فوق ظهور الخيل والجمال وكأنهم في بروج.

ولكننا انتصرنا.

وأنا الآن أدافع عن نفسي، وأنفي الاتهام الموجه لي بأنني قتلت وبدم بارد سجين دم بارد. نعم أن دمي دائمًا في حالة أو على حالة واحدة، سواء صيفًا أو شتاءً، فتور الإيمان لا يجعل دم المؤمن يغلي حقدًا وغضبًا، هذا الرجل هو أمية سيدي السابق، والذي نُلْتُ على يديه كل أنواع وأشكال العذاب والهوان، والذي كان يسره دائمًا أن يجلدني بالسوط، وإلى أن أشرف على الهلاك.

كان الوقت متأخرًا من الليل عندما بدأت طبيعة المعركة تتكشف لنا، وكان علينا أن نقوم بمتابعة فلول العدو، نعم أحضرنا كثير من الأسرى، ولكن ما بين بلال وأمية ليس فيه رحمة ولا هوادة، مثلما كان تمامًا من قبل منذ اثنتي عشرة عامًا لم يكن بينهما شيئًا من هذه الرحمة، في هذه اللحظة لم يكن يشغل بالي سوى ذكرى كيف كانت عيناي يكاد ضوء الشمس أن يعميها أثناء قيام – أمية – بتعذيبي.

وعلى الرغم من أن دمي كان باردًا كالعادة، إلا أن غضبي كان ساخنًا جدًا، كان أمية على صهوة جواده وأنا على قدمي، هو يرتدي درعًا وأنا عاري الصدر، ولكنني تميزت عنه بعنصر المفاجأة، فهو لم يكن يتوقعني عندما خرجت مندفعًا من بين الصفوف والجماعات المحيطة به، كان في موقف يتوجب عليه فيه أن يستسلم ليحفظ حياته، وكان الأمر في غاية البساطة أن يلقي بسيفه على الأرض، وهنا وعلى أسوأ الاحتمالات كان زملائي سوف يمسكون بي ويمنعوني عنه، ولكن ربما أنه لم يكن في استطاعته ذلك، نعم لم يكن في استطاعته أن يستسلم لعبد كان من قبل يذيقه العذاب ويمثل به أبشع تمثيل، وبهذا ساعد هو نفسه على أن يقتل نفسه، فهو كأبله أحمق ضحَّى بدمه من أجل أن يحافظ على كبريائه.

أدار فرسه ناحيتي وهو يصيح يا عبد يا عبد، وكان في استطاعتي أن أضحك منه، ولكنني لم أفعل، فقد أخذت كلامه ولأخر مرة على محمل الجد مثلما كنت أفعل من قبل، ورفع سيفه عاليًا ليهوي به على رأسي، وفي لحظة شاهدت شق صغير في درعه، شق لا يزيد عن شكل الهلال عندما يكون قد مر على تكوينه يومين اثنين، وعلى الفور دفعت سيفي ليخترق بطنه، وليسقط من على حصانه بعد أن سمعت صوت سيفه يمر بجوار رأسي ليحدث صوتًا كصفوف كبيرة من الطيور تهب طائرة من على الأرض في لحظة واحدة، وتراجعت للوراء حتى لا يسقط بجسده علي، وأقسم لكم أنني وللحظة فكرت في أن أحمله من على الأرض، كما لو كان هذا هو مازال عملي الذي أعمله أثناء خدمتي له، ولكن عندما أداروه وشاهدت وجهه عرفت ماذا فعلت، وشعرت بتوتر وحزن وأسى لكل شخص يولد عبدًا، أو يربى كعبد، أو يشرب لبن أم عبدة، أو يتناول طعام العبيد.

العبد دائمًا خائف دائمًا ينتظر العقاب والإهانة والعذاب، لا يمكنه أن يرد على ضربة أصابته، وإلا نال ضربات غيرها أو حتى فقد حياته بسببها. العبد دائمًا يعاقب وعقابه متميز، فهو بلا رحمة وبلا شفقة وبلا حدود، وقفت أفكر في هذا كله وسيفي ما زال يقطر من دماء أمية، وأخذ جسدي كله يرتجف في ألم شديد.

وظللت لعدة ليالي أرقد دون أن يغالب النوم أحضاني، أتذكر وأتخيل هذا الوقت وأسأل نفسي هل أنا بلال بن رباح؟

هل انتقمت منه؟ وهل سيعاقبني الله على ذلك؟ أم ترى أنني فقط سبب؟ وأن القدر اختارني لهذا؟ هل هو أسير أو سجين أم محارب كان يريد قتلي؟ هل أنا مذنب لأنني شعرت بالغضب الشديد عليه؟ أم إنني بريء كنت أدافع عن الدين وعن نفسي في معركة؟ ما الذي جعلني أحمل السيف في هذا اليوم، هل القدر أم نفسي؟

التف أصدقائي وزملائي من حولي ومن حول جثة أمية، وهم يهتفون ني فرحين مستبشرين، ولكنني كنت لا أحس ولا أشعر سوى بنفسي وبجثة أمية فقط، ولا أشعر بأي شاهد من حولي سوى الله وحده، فهو الذي يعرف كل شيء وهو الحق.

* * *

* *

*

بلال يحدثنا عن يوم أحد

الحرب تعلمناها في موقعة أحد، كانت تتـاقض وتـأرجح مـرة لأعلـى وللخلف، ومرة لأسفل وللأمام، المعركة لا تقرر من هو علـى الحـق، ولكـن المعركة تقرر من ثبت ووقف صامدًا، فالسيف أمي لا يعرف القراءة ولا الكتابة، ولم يكتب حرفًا واحدًا ولا صفحة في الدين، أهمية الحرب هو ما الـذي حـدث قبلها وما الذي حدث بعدها، ما تم قبل التحية والسلام، وما تم بعد سفك الـدماء والقتل في أحد.

وقف المكيون وثبتوا في أماكنهم، وفر عبد الله بن أبي بـن سـلول سـيد الخزرج ومعه ثلاثمائة فارس إلى المدينة. في أحد ثبت المكيون بينما أصبنا نحن بالدهشة والرعب، وقررنا نبقى الحفاظ على أروحنا، وانتصروا، ولكن ما الـذي حققوه بنصرهم هذا؟ جهنم والذهاب للجحيم وبئس المصير، ليس لقتلهم أعـدائهم من المسلمين، ولكن لتمثيلهم بالجثث، فقد قطعوا أنوفهم وآذانهم، وبقروا بطونهم.

ولكن لماذا قاموا بالتمثيل بالقتلى؟ لماذا يهينون الجسم البشرى الذي خلقـه الله؟ لماذا كل هذا؟

لقد سمعت عن أخيل البطل الإغريقي الذي كان يهين جثة أعداؤه بجـرهم وراء حصانه في التراب، والدوران بهم في طرقات طروادة، ولا أجد سببًا لذلك، اللهم سوى ما إذا كانوا يريدون أن جعلوا من جثث الأعداء فزاعة[٤١] المستقبل، ربما لأن الخوف مسيطر عليهم مثلما كان مسيطرًا عليَّ، ففي نهاية أي معركـة فإن الموتى والقتلى هم الحكم النهائي لليوم، إذا كان الأمر كذلك فـإن الضـعيف

([41]) الفزاعة شخص على هيئة رجل يضعون عليه ملابس، ويوضع في الحقول لإخافة وإفزاع الطيور.

يلتهم القوي، وربما لأنهم يخافون مثلما كنت أنا نفسي أخـــاف؛ لأنـــه وبعـــد أي معركة فإن ابتسامة الموت في الواقع هي الابتسامة الأخيرة أو الضحكة الأخيرة لا أعرف تمامًا.

لقد وعدتكم بعرض المتناقضات، وهذا ما سوف أقدمه، لقد كانت هاماتنـــا تعلو في السماء متخطية قمم جبال أحد، على الرغم من أننا كنـــا نجـــري علـــى أرضه، لم يكن الوضع عبارة عن رجال يمثلون مدينتين (مكة، المدينة) أحـــدهما مؤمنة والأخرى غير مؤمنة يتحاربان عند أحد. فالقتال كان بـــين الله وبيننـــا أو بمعنى أدق وأوضح.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ومَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَقَى الجَمْعَانِ فَبِـــإِذْنِ اللَّـــهِ ولِيَعْلَمَ المُؤْمِنِينَ﴾(٤٢).

فلقد أخبر الله رسوله الكريم ﷺ أن ما أصاب المؤمنين يوم أحد هو تجربة ومحنة، وضعهم فيها ليرى كيف يمرون منها.

[التجربة ونتائجها ليراها ويتعلم منها وليعلمها العالم كله من بعد، جـــزاء طاعة أوامر الله والرسول وجزاء مخالفة أوامرهما] وموقعة بدر وموقعة أحـــد، هما الواقع الفعلي والعملي على صدق كلام الحق ورسوله الكريم. عند الطاعـــة كان النصر والعزة والكرامة، وعند عدم الطاعة كانت الهزيمة وكـــان الفـــرار، وإلى أن نادانا الرسول بالثبات اعتقدنا أن السماء سوف تنصرنا رغم عدم طاعتنا لأوامر السماء، وهذا لن يكون أبدًا، ولكن مثلما تعطي الطفل الصغير درسًا قاسيًا كي يتعلم الطاعة وتنفيذ الأوامر، كان الأمر معنا كذلك، وكان الثمن غاليًا جـــدًا دفع ثمنه الكثيرون.

([42]) آل عمران: ١٦٦.

ففي يوم أحد سقط حمزة شهيدًا بحربة عبد حبشي مثلي، أغرته هند زوجة أبي سفيان أن تمنحه حريته ووزنه من الفضة والكثير من الأقمشة والملابس الحريرية لرميه رمح واحد، كان اسم هذا الحبشي الأسود "وحشي" لم يفعل شيئًا طوال المعركة سوى التربص ومراقبة أسد الله حمزة وهو يصول ويجول في المعركة، وأثناء تتبع حمزة الكفار، خرج عليه وحشي من بين الصفوف وصوب حربته على صدره وفر تاركًا المعركة.

من صميم قلبي أشفقت على وحشي الحبشي الأسود مثلي، فهو لن يرتدي تلك الملابس الحريرية، ولن ينفق الفضة، هو فقط نال حريته اسمًا وفر بنفسه إلى الصحراء يتخفى حتى من اسمه، وبعد عدة سنوات حضر إلى الرسول ﷺ طالب الصفح والغفران، فغفر له الرسول وصفح عنه، ولكنه طلب منه أن يرحل فوجوده يجعله يشعر بالحزن والألم على فراق حمزة.

في يوم أحد تغير وجه هند الجميل إلى وجه دموي قبيح، فقد بقرت بطن حمزة واستخرجت كبده لتأكلها، ومضغتها فعلاً ثم لفظتها. ولعل الشعراء قد صدقوا عندما قالوا: إن المرآة تمنع من المشاركة في الحروب لشدة قسوتها.

في يوم أحد نجا الرسول من الموت بأعجوبة[٤٣]، فقد أصابه حجر وسقط على الأرض جريحًا، وكان ابن قمئة أشهر من يستخدم السيف في مكة واقفًا

([43]) قال ابن هشام : وذكر ربيح بن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري عن أبيه، عن أبي سعيد الخدري: أن عتبة بن أبي وقاص رمى رسول ﷺ وسلم يومئذ، فكسر رباعيته اليمنى السفلى، وجرح شفته السفلى، وأن عبد الله بن شهاب الزهري شجه في جبهته، وأن ابن قمئة جرح وجنته، فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته، ووقع رسول الله ﷺ في حفرة من الحفر التي عمل أبو عامر ليقع فيها المسلمون، وهم لا يعلمون؛ فأخذ علي بن أبي طالب رضي الله عنه بيد رسول الله ﷺ؛ ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائمًا، ومص مالك بن سنان، وأبو أبي سعيد الخدري، الدم عن وجه رسول الله ﷺ، ثم ازدرده، فقال رسول الله ﷺ: "من مس دمي دمه لم تصبه النار".

أمامه، وكان والسهل اليسير عليه أن يقتله، ولكن حدث شيئًا غريبًا جــدًا، فــابن قمئة المشهور عنه ببرود أعصابه وعاطفته رفع سيفه لأعلى ما يستطيع، وهوى به، وهو المشهور عنه الدقة والأحكام، ولكنه وعلى غير المتوقع خانه التوفيــق تمامًا، وذلك لقدرة الله، لقد شاهدت كل شيء بوضوح تام، وكأن الموقف استغرق أكثر من ساعة، رميت بنفسي على ابن قمئة، وتدحرجنا سويًّا وكل منا سيفه في يده على الأرض كالثعبان، وأعتقد أنني أصبته في قدمه، ولكنني غير متأكد.

ثم تجمع الكثيرون حول الرسول حوالي اثنتي عشرة شخصًا منا، وسيوفنا مشهرة لأعلى تحميه وتصد عنه، وعندما انتهى كل شيء وركب أبو سفيان عائد إلى مكة.

صلى الرسول ﷺ على أرواح الشهداء كل واحد على حده، وعندما هــبط الظلام كان الرسول مازال هناك يتنقل بين جثث الشهداء في ليلة أحد..

* * *

* *

*

بلال يرد على الأكاذيب

لقد سمعت من بعض من قابلتهم هنا في دمشق أن الإسلام انتشر بحد السيف، إن الدين يزرعه الله في قلوب من يخشون الله، ولكنهم مع هذا استمروا في مقولتهم، إن الإسلام انتشر بحد السيف، وعندما سألتهم دلوني على مدينة واحدة آمنت بالإسلام عن طريق القوة والقهر، لم يستطيع شخصًا واحدًا أن يقول شيئًا، وصمت الجميع؛ لهذا يجب أن أصيح بأعلى صوتي: من الذي يقول إن الإسلام انتشر بحد السيف؟ من؟

المسلم لا يمكن أن يدعو بالقوة والقهر؛ لأنه يخشى جهنم، لا إنه بكل تأكيد سيكون مصيره جهنم أن فعل ذلك؛ لأنه هو نفسه أصبح غير مؤمن غير مسلم غير مطبق للقرآن كلام الله وشريعته.

- ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[٤٤].

- ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[٤٥].

- في قطة ذهبت امرأة مسلمة إلى النار. عذبت امرأة قطة حبستها حتى ماتت جوعًا، فدخلت فيها النار، ولكنني سمعتهم يقولون: الإسلام انتشر بحد السيف. فأريتهم عكازي – عصاي – أنا بلال بن رباح أدعو للإسلام، وليس معي سوى عكازي الذي أتوكأ عليه، محمد ﷺ لم يحمل سلاحًا قط سوى للدفاع عن الإسلام، ولفترة محدودة وبعد استنفاذ الجهد والصبر كله، وهو لم يقتل شيخًا،

([44]) النحل: ١٢٥.

([45]) آل عمران: ١٥٩.

ولم يضرب امرأة، ولم يخيف طفلاً، وأوصى بالحيوان والنبات، وصفح عن كل من حاربه وقتل أحب الناس إليه من الصحابة.

أنا بلال رباح كنت أدعو للإسلام وليس معي سوى عصاي، وجميع الدعاة للإسلام ذهبوا لبلاد وأرض العدو بلا سلاح سوى الإيمان. إننا نحن المسلمون نعلم تمام العلم أن لا السيف ولا التهديد ولا الالتواء في القول والفعل، ولا تحطيم العظام ولا التزوير والغش والخداع يمكن أبدًا أن تحول شخص من الكفر إلى الإيمان.

الإيمان صفة لا يحصل عليها الشخص بالإكراه أبدًا، بل يموت دون أن يفقد هذه الصفة، والتاريخ والأحداث كلها تؤكد ذلك، إن جوهر الإيمان والإسلام محاربة القهر وغلبه النفس، إن الله هو الوحيد الذي يقرر من الذي سيؤمن به ومتى وكيف.

كيف إذن انتشر الإسلام بحد السيف؟ ولكن مهما أثبت لهم العديد من المرات فهم مصرون أو هناك من يصر على أن الإسلام انتشر بحد السيف، الإسلام انتشر بالدعوة والكلمة الطيبة والمثل الصالح، لقد تنقل المسلمون الأوائل في جميع أنحاء العالم يبشرون وينشرون الإسلام، ويتكلمون بصراحة وصدق، ويقدمون الحجة والدليل دون أن يخشوا أن يلقوهم الغير بالحجارة أو يجلدونهم أو يطلقون كلابهم عليهم بالكلمة، وليس بالسيف لقد تملكنا قلوب الناس بالكلمة، كلمة الحق، كلمة الله، هكذا انتشر الإسلام.

* * *

* *

*

بلال يحدثنا عن استسلام أبو سفيان

هذه أول ملحوظة لي، وهي ملحوظة هامة وكبيرة كما تريدها، كان هناك شيئًا ما يحدث شيء غير طبيعي، عندما كانت عينا أبو دهار جاحظة بارزة من كمية الطعام الكبيرة التي في فمه، بينما يد عمر الضخمة مقبوضة علي أدري على طعام أم لا، كان ظهري لم يدور لذلك كان عليَّ أن أستدير كي أرى ما يحدث، شاهدت عدونا اللدود على مدى عشرين عامًا، الرجل الذي اضطهدنا والذي عمل جاهدًا على تدميرنا.

أبو سفيان بنفسه كان يسير في مخيم المسلمين، وقد شد قامته ورفع رأسه لأعلى في كبرياء وشموخ كعادته، والتي كنا نرتعب كلما شاهدناه، وقف أمام النيران التي كنا نتحلق حولها، ولكن لم يعره أحدًا التفاتًا، ولم يقف له أحد، أخذ ينظر إلى آلاف النيران التي تحلق حولها جيش المسلمين وكأنها نجوم السماء قد تساقطت على الأرض لتنيرها وتخيل الظلام نورًا، وقال: إن مملكة محمد أصبحت كبيرة جدًا. وكان هذا الكلام منه لا بد وأن أعلق عليه صحح‍ته قائلا: **"محمد رسول الله وليس ملكًا".**

أومأ أبو سفيان برأسه موافقًا، وأخذ يتمتم بكلمات وكأنه يحدث نفسه في شرود وببطء شديد قال: بلال؟ وكأنه يردد اسمي كي يتم جلدي بالسوط مثلما كان يفعل من قبل بنفس الصوت والكلمات الناعمة الهادئة، نظرت إليه ومر أمام عيناي شريط يعرض كل ما قاسيته على يديه، ويمكنك القول أن نظراتي صدمته بقسوة وبشدة، ومر أمامي فقمت وتوجهت إلى خيمة الرسول ﷺ حيث كان يصلي.

يا رسول الله قلت له: لقد جاء أبو سفيان. فرد عليَّ الرسول الكـريم: "**إن الله يسبب الأسباب ويحدد الميعاد لكل شيء**". ثم أشار إليَّ كي أُدخل أبا سفيان. لم تظهر عليه أية علامة من علامات الفخر أو النصر بل وضع يده على عينـاه وهو يقول: إن الله قد دعاه إلينا.

دخل علي أولاً ثم أبو سفيان، بينما كان عمر متقلدًا سيفه وجئت أنـا فـي المؤخرة.

بدأ أبو سفيان في طرح قضية الهدنة وأنها يجب أن تستمر، وأن يحـتفظ المكيون بسلاحهم، وأن للمسلمين الحق في الحج، ولكن النبي قاطعه قائلاً: "**هـذا الزمن ولَّى وأصبح ماضيًا، الوقت متأخر جدًا على مثل هذا القول**". ثم بدأ الكلام يأخذ مجرى آخر بدأه علي بن أبي طالب: ألم يحن الوقت بعد كي تعترف يا أبو سفيان بأن محمد رسول الله؟ طأطأ أبو سفيان رأسه لأسفل وهو ينظـر للبسـاط الذي يجلس عليه وبدت عيناه وكأنهما مغلقتان "محمد أنه ما زال في قلبي شـك" غمغم قائلاً.

رد عليه عمر على الفور وكعادته: إذا قطعنا رأسك فإن الشك سوف يزول منها تمامًا".

لم يحدث من قبل أن تناقشت أو قل تجادلت مع عمر، ولكنني الآن يجـب أن أفعل، قمت ووضعت يدي على ذراعه وقلت: إنه لا إكراه في الدين. وابتسـم الرسول ﷺ ورأيت في عينيه إنه مسرورًا لقولي. ولكن أبو سفيان نظر إليَّ كطفل صغير لم يشاهد من قبل رجلاً أسود.

أنت أيها العبد إنك مدرسة حق،مدرسة صدق، ثم نظر إلـى الرسـول ﷺ وقال: إذا كانت آلهتي التي كنت أعبدها تستحق لكانت أنقذتني من قبل هذا الذي يحدث الآن.

لم يرد عليه الرسول بشيء بل ظل صامتاً، ثم تكلم أبو سفيان ثانية بوضوح ودون أي تردد: إنني أعلن وأنا بكامل حريتي وإرادتي وليس تحت أي إكراه أنه لا إله إلا الله الواحد الأحد وأن محمد رسول الله.

هذا هو الإسلام، الاستسلام الكامل لله وحده، وانتهى الأمر وبدأت أولى خطواتنا نحو مكة، آخر مسافة نقطعها نحو السعادة، إنها إرادة الله ومشيئته كما قال الرسول الكريم ﷺ وما ينطق عن الهوى.

* * *

* *

*

بلال يخبرنا كيف تسلق الكعبة

لم أكن اعتقد أنه باستطاعتي تسلق الكعبة، فجوانب الكعبة ترتفع باستقامة عمودية وحوائط منحدره بشدة، وكسوة من القماش الأسود المعلق، تلك التي أعطتني الشيء الوحيد الذي يمكن أن أتمسك به، وإن كانت في معظم المناطق محترقة، ولكن في هذه اللحظة لو طلب مني الرسول أن أطير في الهواء لطرت، ولأصبحت معجزة، ولأطلقوا عليَّ "بلال الطائر".

عندما طلب مني الرسول أن أصعد لأعلى، لقد كنت أعرف لماذا طلب مني الرسول الصعود لأعلى، فتواجدي على سطح الكعبة أدعو للصلاة سوف تصبح علامة للبشرية جمعاء على أن هذا البيت الذي بناه النبي إبراهيم قد عاد ثانية؛ ليكون المكان الذي يدعوا للصلاة ولدين الله إن أول دعوة للصلاة في المدينة وكما قال الرسول الكريم لي كانت بمثابة استكمال والانتهاء من بناء مسجد الرسول، أما الدعوة للصلاة من فوق الكعبة فهي بمثابة تنظيفها وتنقيتها من كل آثار الوثنية.

كانت المسئولية عظيمة وخطيرة جدًا، لقد كنت أتسلق ضد رغبة تلك الآلهة الوثنية التي تملأ الكعبة، وإذا سقطت وتحطمت عظامي، فإن ذلك سيكون بمثابة رد الاعتبار للآلهة الوثنية.

ولكنني وكما قلت من قبل عندما يصعد المؤذن ليرفع الآذان بالصلاة، فإن وجوه وقلوب المصلين المتجهة لأعلى هي التي تحميه، وهي التي ترفعه لفوق أحيانًا، اشتبكت يداي بقماش الكعبة، وأحيانا احتكت ركبتاي بحجارة الكعبة، أخذت أنفاسي تتلاحق وأخذت ألهث بشدة، وكانت دقات قلبي كأنها الطبول تدوي في أذناي، التصقت ضلوعي بعمودي الفقري، وهكذا شعرت بالفعل.

أخذت أقبض بيداي كالكلابات وأرفع جسدي بشدة ساعداي، اللذان حملا جسدي لأعلى، وكانت الياردات الأخيرة هي أصعبها وأطولها، ولكنني أخيرًا صعدت لسطح الكعبة، وتدحرجت بجسدي على سقف الكعبة، ورقدت هناك بعيدًا عن أنظار العالم كله، وأذكر أنني كنت أود أن أظل هناك للأبد، ولكن الرجل الذي يدعو الناس للصلاة لا يجب أن يضيع وقت الله على نفسه ولمتعته الخاصة.

أسفل كان الصمت مطرق جماعات كبيرة لا ينطقون بكلمة واحدة، نظرت بعيناي إلى السماء، وشعرت أنها تكتم أنفاسها وهي تنظرني، وفجأة شعرت بخوف عظيم، فقد تذكرت أين أنا وما هو المنتظر مني، وبدأت في الآذان في الدعوة للصلاة، وفعلت ذلك بصورة جيدة جدًا.

أعرف إنني فعلت ذلك بمنتهى الدقة والبراعة؛ لأنني كنت أسمع صوتي تردده الجبال من حولنا، صدى صوتي كان في منتهى الشجن، فقد رددته جبال عرفات، كل بقعة مقدسة كانت تردد الآذان بعدي.

لقد شاهدت الرسول راكبًا على جمله ورأسه منحنية للأمام، وقد وضع راحة يده على ظهر الأخرى، لقد كان فارسًا وبالقرب منه الصحبة الجميلة، علي أبو بكر، عمر. ومن حولهم آلاف، بل عشرات الآلاف، بل مئات الآلاف من الرجال والنساء والأطفال يحيطون به من كل جانب، أولئك الذين انتهت حروبهم بالصلاة.

عادة ما كنت وفي جنح الليل انهض فزعًا وفرحًا متذكرًا ذلك اليوم، هل حدث مثلما قلت أنها حدثت؟ أم ترى أنني أحلم وسوف أعود ثانية عبدًا يعذب ليل نهار، ويحلم بأنه يتسلق خياله على الحائط، هل أتخيل الماضي في أحلامي.

العظام الكبيرة (العجوز) لا يمكنها التسلق وبالتأكد إنني الآن بلغت من السن عتيا، إنني لا أعلم كم بلغت من العمر بدقة، إن العقل والجسم دائمًا في حرب مع هذه الفكرة وهذا السؤال، ولا أريد أن الإجابة عليه، حتى وأنا جالس

أنظر إلى طرف عصاتي أشاهد الشمس وهي تضرب، أسأل نفسي هل أنا رجل عجوز كنت شابًا، أم أنني شاب أصبح عجوزًا؟

لقد شاهدني التاريخ وسجل لي تسلقي لجدران الكعبة، إنني لا أحلم هذا ليس حلمًا، إن أملي كله أن الله شاهدني وأنا أفعل ذلك، شاهدني وأنا أتسلق جدرانها مرتفعًا إلى عنان السماء إلى حيث الجنة، إذا كان ذلك كذلك فإنني بالفعل بلال العبد الطائر.

* * *

* *

*

بلال يخبرنا عن وفاة الرسول

برفق شديد قبض الله روح آخر الأنبياء حيث مات بعد ظهر ٨ يونيو سنة ٦٣٢م. في وسط دموع وقلوب محبيه من الرجال والنساء، يقولون: حتى ملك الموت اقترب منه خجلاً وهو يسأله بلطف: هل أنت مستعدًا، الخيار لك؟ فاختار الرسول الرفيق الأعلى، ومعلوم أن معظم الأنبياء إن لم يكن كلهم ماتوا بطريقة ليست سهلة، والكتاب المقدس يقص علينا ذلك.

الموت يأتي (الرجال) بطرق مختلفة، فهناك من يموتون جماعة سواء في حرب أو وباء أو غرق سفينة بحرية [أو سفينة فضاء] الموت بالنسبة للشخص شيء شخصي خاص به هو نفسه، وعادة لا يبحث فرد عن كيفية موت فرد آخر، أنه فقط يعزو موته للأحداث مثلما سوف أعرض عليكم حدث موت الرسول ﷺ، فهو لم يمت فجأة، ولم يمت عن توقعن وهو لم يمت بطريقة عنيفة، وكذلك ليس بطريقة سهلة، لم يمت بطريقة عادية أو غير عادية، إنه مات كما أراد الله لآخر أنبيائه، اليد التي قدمته نورًا للبشرية هي نفس اليد التي حملته لجنة الخلد.

لقد أيقظته كالعادة فاستيقظ كعادته ولكن ببطء كبير، كان يشكو من صداع وآلم برأسه، وطلب مني أن أتحسس جبهته فعلت ووجدتها ساخنة، وطلبت منه أن يستريح وأن ينام ثانية، ولكن أصر على أن يذهب معي إلى المسجد، وأثناء سيرنا وضع يده في يدي، حيث كانت وعكة جعلته يسير بغير ثبات، فالتصقت بجسده الشريف أسنده، وفجأة توقف ثم قال: **"هل تتذكر يا بلال أول مرة التقينا فيها، لقد سرنا هكذا تمامًا، ولكن كنت أنا الذي أحتضنك كي أساعدك على السير".**

وضحك الرسول فضحكت وقلت: كان هذا منذ اثنين وعشرون عامًا أجابني قائلاً: أمس... أمس... أمس.

وكان هذا هو آخر وقت سعيد قضيته في صحبته، فبعد هذا اليوم والأيام التالية كانت الحمى تعمل عملها، ولكنه أصر على النهوض من فراشه ورغم ضعف صوته وارتعاش يديه، إلا أنه أصر على أن يؤم الصلاة كعادته دائمًا.

وفي اليوم الخامس شاهدت السيدة عائشة وقد تغير لون وجهها، وعندما فتحت لي باب المنزل كنت أسمع من خلفها تألم الرسول وتأوهه، وكان يتنفس بصعوبة شديدة، أعطتني وعاء وطلبت مني أن أحضر لها ماء باردًا.

جريت، وجريت، وجريت ومررت على بئر.. وبئر، كنت أريد أعمقها وأكثرها برودة، مازال صوت الدلو وهو يرتطم بالماء في أسفل البئر يتردد في أسماعي حتى الآن، أحضرت الماء البارد عله يطفئ النيران المشتعلة برأس الرسول الكريم، زادت مسئوليتي زادت المسئولية الملقاة على عاتقي، ماذا لو إنني أقمت الأذان ولم يسمعني الرسول.

وعدت ثانية إلى منزل الرسول ووجدت البُشر يعلو وجه السيدة عائشة رضي الله عنها قالت لي: إن الرسول يبلغك أن إقامتك للأذان كانت جيدة بوجه خاص هذا اليوم، فأنت لم تؤذن من قبل بمثل هذا الصوت الجميل. بكيت... بكيت، فأنا لا أوافقه الرأي بالنسبة لصوتي وبالنسبة للأذان، إنه يريد فقط أن يأخذ بخاطري ويطيبه ويسري عن صوتي لم يكن جيدًا، والهواء كان ثقيلا لا يحمل ولا يردد الصوت، والنخيل كان يعيق تردد الصوت وسير الهواء.

ضربت بعصاي نخيل المدينة يجب أن يعرف كل مؤذن أن أفضل الأذان ليس ما تسمعه الآذان، فهي ليست سوى آداه الآذان يشعر به يسمعه القلب والعقل لم أترك أبدًا موقعي على باب منزله، جريت، وجريت، وأحضرت المياه الباردة

من أكثر من سبعة آبار، ولكن عندما يقول الرسول: أنه كان أفضـــل آذان فهــو أفضل آذان.

وكان الرسول تغلبه الحمى تارة وتعفو عنه تارة أخرى، ولمدة يومين كنت استخدم ساقاي للجري، للجري مبتعدًا بعيدًا عن عقلي، أجري أجــري لأحضــر الماء البارد؛ كي تبرد به السيدة عائشة الجبهة الكريمة لرسول الله.

في اليوم الثامن وفي الصباح حدث تغير كبير جدًا مفاجئ، فقد قام الرسول من فراشه وفتح باب المنزل بنفسه وخرج، وكانت رأسه ملفوفة برباط أبـيض، وقد أحاط به علي بن أبي طالب من جانب والفضل بن عباس من الجانب الآخر، وذهب للمسجد وصلى على أرواح شهداء أحد، كانت خطواته بطيئــة ومؤلمــة، قدماه تخطان في الأرض، ونأيت ببصري حتى أنا العبد الأسود كنت أستطيع أن أرى علامات الموت على وجه الرسول الكريم، ولربما ما يقوله البعض صحيح، فملاك الموت يزور الشخص ويذهب لمدة ثلاثة أيام في ظلمة الليل، كان الرسول يذهب إلى المقابر وتقف في وسطها، وكنت أنا وعلي نتبعه خوفًــا أن يســقط أو يصيبه مكروه، كان يحدث سكان القبور من حوله قائلاً:

"السلام عليكم يا أهل القبور،

السلام عليكم في دار الحق،

وإن ليوم يمر عليكم في سلام،

يحسدكم عليه جميع الأحياء،

وإنا إنشاء الله لبكم لاحقون.

هذا ما سمعته، وهذا ما أتذكره ويا ليتني ما تذكرته وما مر بي.

وعندما عاد إلى المنزل سأل السيدة عائشة كم لديها من المال في المنزل، لم تستغرق وقتًا في عد الموجود من النقود، فهي سبعة دنانير قال لها: **"تصــدقي بهم اليوم فكيف ألقى ربي ومازالت هذه النقود في حوزتي؟"**

وعاد مرة أخرى للمسجد، وكانت هذه هي آخر مرة أشاهده فيها، فلم تكن هناك سوى سويعات قليلة في حياته (إلى أن يلقي ربه)، والشيء الغريب أن علامات ومظاهر الموت ذهبت عن وجهه وتلاشت تمامًا، لم أشاهده من قبل بمثل هذا الجمال الأخاذ، كان وجهه يشع بالبهجة والسرور التي تسبغها العبادة على الإنسان، تكلم بهدوء وفي سكينة، وطلب من الجميع أن يسامحوه إن كان قد أساء إلى أحد منهم دون قصد، ثم نصحهم بأن يكون القرآن حبهم وربيع قلبهم، فهو كلام الله الذي حوى كل شيء، ونظم وأجاب على كل شيء، إنه الضوء الراشد الهادي للطريق القويم. ثم نهض ونظر للجميع وقال: "**إنني الآن راحل عائد إلى الخالق، ولكن يجب عليكم جميعًا أن تتذكروا أن هذا هو مصيركم، وأنكم سوف تلحقون بي، وما من مخلوق إلا وهو عائد إلى خالقه**".

إن ما أقصه عليكم الآن ليس مذكرات ولا تقارير، ولكن ذكريات أستعيدها بخيرها وشرها بسرورها وآلامها، ومع شدة الآلام وقسوة الموت رقد على ذراع السيدة عائشة، ووقعت عيناه على رجل يتسوك بعود مسواك أخضر، فطلب منه عودًا مضغته السيدة عائشة، ثم ناولته له وأخذ يتسوك به.

وسمعته عائشة وهو يناجي الله "**يا خالقي وربي الرحيم، أرجوك متوسلاً أن تحشرني في زمرة الغلابة والمساكين**". ثم أخذ يتمم بمناجاة مع الخالق صعبت على الأذن البشرية سماعها، ثم سكت وسكن لبرهة، وبعدها نظر لأعلى وتجولت عيناه في سقف المنزل، ثم قال بصوت عال مليء بالسرور والبشر ثلاث مرات: "**لا بل الرفيق الأعلى....لا بل الرفيق الأعلى....لا بل الرفيق الأعلى**".

وكانت آخر لقاء بين جبريل ورسول الله.

وأخذت السيدة عائشة تنتحب بشدة، وعرفنا أن الرسول ذهب للقاء ربه في موعده الذي وعده.

واندفع عمر بن الخطاب في هياج وثورة وعنف شديد وهو يرفع سيفه عاليا، وهو يصيح: والله لأن سمعت أحدًا يقول أن محمدًا قد مات لأوردته حتفه. وحاول الكثيرون تهدئته، ولكن هيهات ثورته وهياجه زادا من قوته وبطشه.

وفي المسجد وقف عمر وقد انتصب شعر رأسه وأصبح شكله يمنع أحدًا من الاقتراب منه وصاح: يا قوم تذكروا نبي الله موسى عندما صعد على جبل سيناء، قال اليهود: إن نبي الله موسى مات. ولكنه عاد ثانية بعد أربعين يومًا، محمد رسول الله لم يموت وسوف يعود مثل موسى.

كانت كلمات عمر تحمل كل صفات النبل الرجاء، وقام أبو بكر الصديق رفيق الرسول، ونظر إلى وجهه الكريم المشع بالنور والهدوء والابتسامة، ثم مال عليه وقبله ثم غطى وجهه.

ثم طلب من الجميع السكوت والسكون وقال، من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت.

وسقط عمر على الأرض وهو يبكي ويمسك وجهه بيديه، سقط بجسده الضخم الثقيل فأحدث دويًا تلاشى مع صوت بكاؤه وانتحابه بشدة، وجسده يرتجف كله.

ثم أخذ يقول: والله وكأنني ما سمعت هذه الآيات من قبل، والله وكأنني أسمعها لأول مرة.

أنا بلال بن رباح العبد الأسود ما عدت أؤذن للصلاة، لم تعد قدماي تستطيعان حمل جسدي، حتى عندما طلب مني علي بن أبي طالب ﷺ رفع الآذان حاولت فلم أستطيع إكمال الآذان، فقد انهرت تمامًا بعد بضع كلمات.

حاولت التغلب على حزني، حاولت وأنا واقف على السطح أن أتذكر الكلمات، لم يستطيع لساني أن يذكر اسم الرسول الحبيب؛ عدت للبداية وعندما

آتي على كلمة محمد لا يمكنني أبدًا أن أنطقهـا، ولا أسـتطيع سـوى النحيـب والأنين، أخيرًا أشفق الجميع عليَّ، وصعدوا وساعدوني على النزول.

ولكن أنا بلال بن رباح العبد الأسود كنت أسمع الآذان خمس مرات فـي اليوم وبصوتي يتردد في كل مكان اذهب إليه، في كل بلدة وفي كل قطر كنـت أضع يداي على أذناي أسدهما، ومع هذا أسمع الآذان بكل وضوح وبصوتي، فأنا بلال بن رباح العبد الأسود مؤذن رسول الله.

* * *

* *

*

بلال على باب منزله

الإنسان، عمر، تاريخ، ذكرى، وأنا بلال بن رباح العبد الأسود الذكرى بالنسبة لي، نصر، شرف، فخر، إذا تذكرني أحد فأرجو أن يتذكرني من خلال أصدقائي وأصحابي، من يسأل عني فليسأل أصحابي.

أنا بلال هو أصحابي نحن شيء واحد أنا واحد من أصحابي، أحد أفراد الصحبة عشت في عصر وعهد الكمال، عهد المساواة، والحق، والعدل، إنه الوقت الذي عاش فيه الرسول محمد ﷺ وعشنا في كنفه أروع وأكمل وأسعد عيش، إنه عصر الرسول لا يمكن لأحد مهما بلغ أن يتصور هذا العصر، ولكننا جميع المسلمون نعيش شواهده وآثاره.

إنني كنت أول من رفع الآذان، وصاحب الصحابة، فكل هذا مشيئة الله فعال لما يريد، وهو العاطي الوهاب، أعطاني الكلمات والصوت، سواء كان صوت يمامه أو زهرة، فهذا عطاء من الله يبدله، ويعدله، ويزيده، وينقصه عندما يشاء وكيف يشاء، أما أنا فبلال بن رباح العبد الأسود الذي أكرمه الله، وأكرمه الرسول عندما قال: "**بلال من أهل الجنة**".

إنني أتشوق لها كل لحظة، حقيقة لا يجب أن يستعجل أحدًا الموت، ولكن يجب أن ينظر الجميع لهذا اليوم.

إن الأحياء دائمًا معتادون على القول بأنهم أفضل من الأموات، ولكن هل سأل أحدهم نفسه هل الأموات يوافقونهم هذا الرأي؟

ماذا كان يعني الرسول الكريم بقوله في ذلك اليوم بين القبور عندما وصف الموتى بالمحظوظين؟

كانت الليلة باردة جدًا والأرض الحجرية صلدة، وبالطبع الموتى سكان القبور لا يتكلمون كل في قبره، ولكن هل هم موتى أم هم بقايا ومخلفات، ما كان

يطلق عليه من قبل إنسان؟ حيث أن الجسد ليس سوى وعاء يحمل الروح، ذلك الجسد الذي يتحلل درجة بدرجة كل حسب ظروفه، وإلى أن لا يبقى منه شيئًا وتذهب الروح إلى مستقرها الأخير.

ولكنني أعتقد بأنني فهمت ما الذي كان يقصده ويعنيه الرسول الكريم، ذات يوم وأثناء وجودنا بالمسجد كان الظلام سائدًا، وكانت العواصف الرعدية مستمرة، وتجمعت السحب فوق أحد، وأخذت الدجاجات والديوك تجري هنا وهناك تحاول أن تجد لها ملجأ يقيها المطر الشديد، وسمعت الرسول الكريم يقول: "**الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا**".

ولم أعد أندم أو أحزن على شيء، حتى تلك الأيام التي كنت أجلد فيها بقسوة، إنني سعيد من أجل أطفالنا فهم ماضينا كما هم مستقبلنا، الرجل يجد أباه في نفسه خاصة عندما يعتني هو بابنه أنها أسطورة ولغز متواصل الأجيال، فعلى الرغم من أن الكبار هم الذين يعلمون الصغار، فإن الصغار هم الذين يطورون ويحسنون الكبار.

أنا بلال بن رباح العبد الأسود في منتهى السعادة بلون جلدي بانتمائي لأفريقيا؛ لأن هذه الأبعاد أو من هذه الأبعاد أتكون.

إنني أعيش اليوم متكئًا على عصاي، دائرة ومحيط حياتي صغير جدًا من المنزل إلى المسجد ثم إلى المنزل ثانية.

ولكنني أعيش فعلاً في عالم أوسع، عالم أرحب، عالم أفضل. إنني أعيش في عالم الذكريات السعيدة مع الرسول رسول الله ﷺ.

ربما في جنة الخلد قد أسير مع الصحابة ثانية، وربما أسمعه ثانية وهو يقول: "**الإنسان لا يحصل على أكثر مما هو مكتوب له وما هو بحاجة إليه وما يريد بالفعل**".

محمد ﷺ سيد الخلق وأكرمه، الصادق الأمين حبيب الله، لم يكن لديه سوى ثوبين اثنين؛ واحد يرتديه والأخر يغسله، وأسمع من الصحابة وعيونهم تلمع بُشرى وسعادة.

لقد أرسل الله رسوله محمد ﷺ بكلمة الحق والرحمة للإنسانية، لقد كان نبي الله، ولكنه كان يحب أن يستمع لكل البشر؛ لأنه كان على يقين من أن جميع البشر خلق الله، جميع البشر عبيد الله، وهو أكرم البشر مثلهم تمامًا لا يختلف عنهم في شيء.

هذا هو محمد بن عبد الله ﷺ.

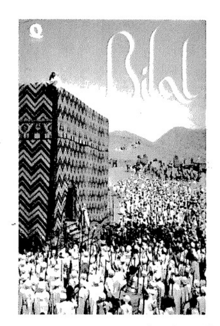
تم بحمد الله.



إصدارات مكتبة النافذة فى
مقارنة الأديان

العنوان	المؤلف
* الله واحد أم ثالوث	د. المستشار / محمد مجدى مرجان
* المسيح إنسان أم إله	د. المستشار / محمد مجدى مرجان
* محمد ﷺ نبى الحب	د. المستشار / محمد مجدى مرجان
* بذل المجهود فى إفحام اليهود	السموأل بن يحيى المغربى
* النصرانية والإسلام	المستشار / محمد عزت الطهطاوى
* محمد ﷺ نبى الإسلام (فى التوراة والإنجيل والقرآن)	المستشار / محمد عزت الطهطاوى
* لماذا أسلم هؤلاء	المستشار / محمد عزت الطهطاوى
* الإنجيل والصليب	الآب / عبد الأحد داود الأشورى
* سر مريم	حسنى يوسف الأطير
* عقائد النصارى الموحدين	حسنى يوسف الأطير
* المواجهة بين القرآن والإسرائيليات	حسنى يوسف الأطير
* البدايات الأولى للإسرائيليات فى الإسلام	حسنى يوسف الأطير
* المذهب الدهرى عند العرب	حسنى يوسف الأطير
* على هامش الحوار بين القرآن واليهود	حسنى يوسف الأطير
* شبهات مسيحية معاصرة حول الإسلام (حائرون أم معاندون)	حسنى يوسف الأطير
* تقويم الاعتقاد بين القرآن والنصارى الموحدين	حسنى يوسف الأطير
* تحفة الأريب فى الرد على أهل الصليب	أنسلم تورميد (الشهير : بعبد الله الأندلسى)
* المناظرة الكبرى فى مقارنة الأديان	د محمود على حماية
* التثليث (بين الوثنية والمسيحية)	د محمود على حماية
* دراسات فى الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد)	د محمود على حماية

* يأجوج ومأجوج بين التوراة والقرآن	د. أحمد حجازى السقا
* أهل الكهف (بين الإسلام والمسيحية)	د. أحمد حجازى السقا
* يوحنا المعمدان (بين النصرانية والإسلام) ...	د. أحمد حجازى السقا
* الأرواح وحياة القبور(بين المسلمين وأهل الكتاب)	د. أحمد حجازى السقا
* هيكل سليمان (عند المسلمين وأهل الكتاب)	د. أحمد حجازى السقا
* الصابئين (الأمة المقتصدة)	د. أحمد حجازى السقا
* معركة هرمجدون ونزول عيسى والمهدى المنتظر (فى التوراة والإنجيل)	د. أحمد حجازى السقا
* بروتوكولات حكماء صهيون وأصولها التوراتية والتلمودية	د. أحمد حجازى السقا
* تاريخ العرب القديم (من سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى سيدنا محمد ﷺ)	د. أحمد حجازى السقا
* نقد التوراة (أسفار موسى الخمسة)	د. أحمد حجازى السقا
* الحج إلى الكعبة (فى التوراة والزبور والإنجيل والقرآن)...	د. أحمد حجازى السقا
* الكنز المرصود فى قواعد التلمود	د. روهلنج / شارل لوران ترجمة : يوسف حنا نصر الله
* الرد على أصناف النصارى	على بن ربن الطبرى
* المناظرة التاريخية (بين الشيخ رحمة الله الهندى والقس بيفندر)	
* إظهار الحق	الشيخ رحمة الله الهندى
* الفارق بين المخلوق والخالق	للأستاذ عبد الرحمن أفندى بلجة جى زادة
* رسالة فى اللاهوت والسياسة	سبينوزا ـ ترجمة : حسن حنفى
* القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ...	موريس بوكاى



بلال بن رباح

مؤذن الرسول ﷺ

مكتبة النافذة